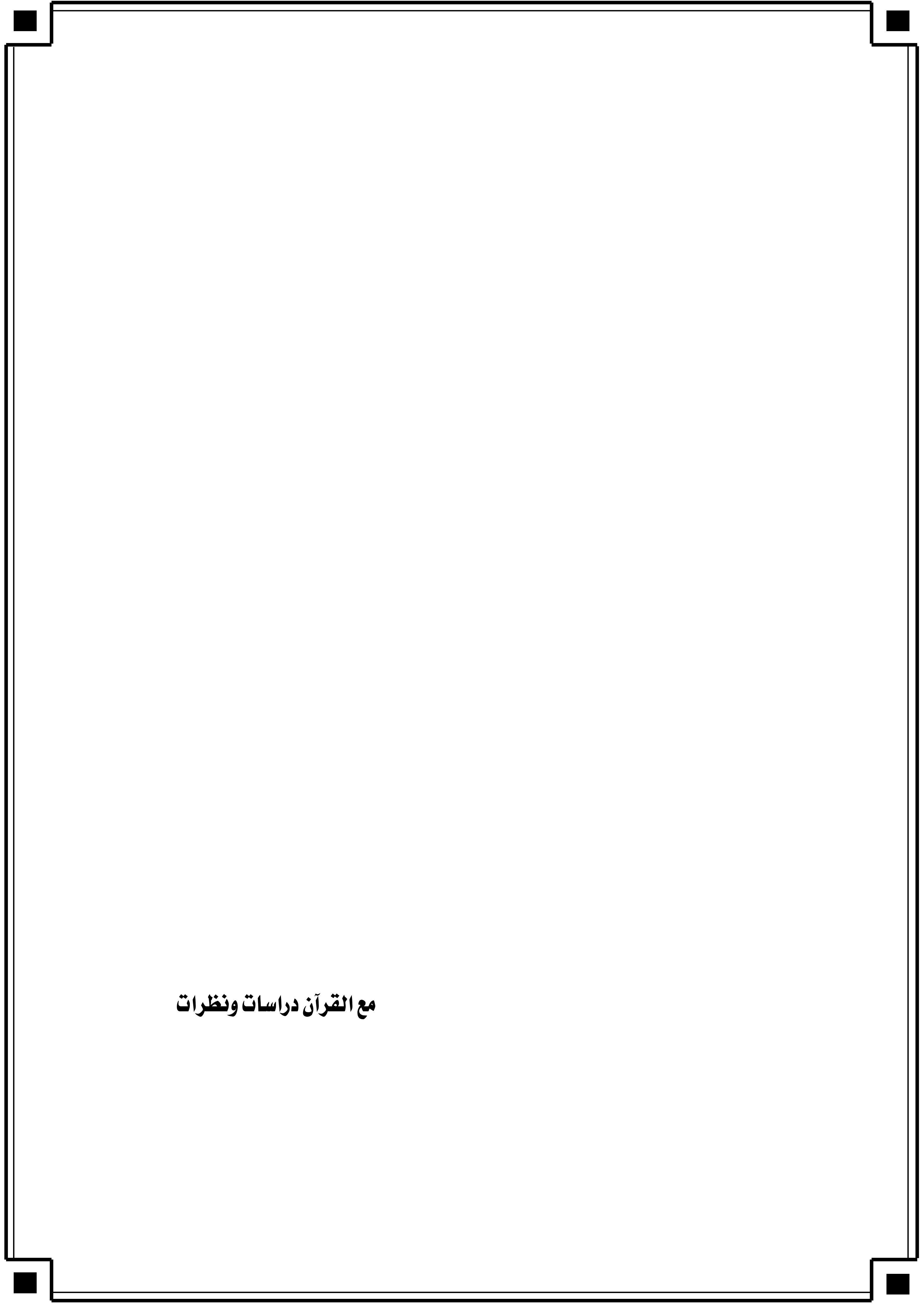


مع القرآن دراسات ونظرات

الطبعة الأولى

١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠١٤/١/٥٤١)

٢٢٠
جرار، مأمون فريز
مع القرآن دراسات ونظرات/ مأمون فريز جرار_ عمان: دار المأمون للنشر والتوزيع ، ٢٠١٤ .
(٢٤٨) ص
ر.أ: (٥٤١/ ١/ ٢٠١٣).
الواصفات: / سور القآن / / القرآن الكريم /

❖ **يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.**

ردمك ISBN ٩٧٨-٩٩٥٧-٧٧-٣٠٣-٨

دار المأمون للنشر والتوزيع
العبدلي - عمارة جوهرة القدس
تلفاكس: ٤٦٤٥٧٥٧
ص.ب: ٩٢٧٨٠٢ عمان ١١١٩٠ الأردن
E-mail : daralmamoun2005@hotmail.com

مع القرآن

دراسات ونظرات

د. مأمون فريز جرار



دار المأمون للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الكتاب

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

يضم هذا الكتاب مقالات وبحوثاً في القرآن الكريم كتبتها في مراحل مختلفة، ومعظمها مما نشر في عمودي الأسبوعي في صفحة الفكر الإسلامي في جريدة الدستور الأردنية، ومن فضل الله أنني اتخذت منهجاً في الكتابة أثمر مجموعة من الكتب، مما كتبته في كتابة ذلك العمود، ومنها هذا الكتاب الذي أرجو أن ينفع الله به، وقد كانت بعض المقالات في محاور معينة تمثل دراسة لظاهرة أو أسلوب قرآني، وبعضها يمثل نظرة تدبر في بعض الآيات، وها أنا أقدمها إلى القراء سائلاً الله القبول، وراجياً العلم الذي ينفع الناس. ولله الحمد أولاً وأخراً.

مأمون فريز جرار

مقدمة

وقفات مع آيات

هناك أمر لا بد من التنبه إليه في شأن القرآن الكريم وفهمه، أي تفسيره، ذلك الأمر هو أن في القرآن الكريم آيات نفهمها كما فهمها الأسلاف من المفسرين، لأنها مما لا يتجدد فيه الفهم، مما ليس له علاقة بما يفتح الله تعالى على الناس في آفاق الكون والنفس والحياة، ولكن هناك كثيرا من الآيات التي نتجاوز فيها فهم السابقين، لا حبا في المخالفة بل لأن أفق العلم في زماننا يهيئ لنا من آفاق الرؤية ما لم يتهيأ لأسلافنا، والفهم الجديد يزيدنا بالله تعالى إيمانا، ونحن نقدّر جهود السابقين ونترحم عليهم ونسأل الله تعالى أن يأجرهم، ولكن القرآن الكريم كما ورد حمال أوجه.

وهناك مما يفتح الله به على بعض عباده من ألوان الفهم الجديد الذي قد ينقدح به الفكر أو يكون ثمرة التدبر، أو مما ييسر فهمه ما تجلى من آيات الله تعالى على أيدي العلماء في الكون والإنسان والعوالم المختلفة.

وهناك أمور لا بد أن يستصحبها من يقرأ كتاب الله تعالى أو يسعى إلى فهمه من أهمها:

أن يكون لديه اليقين المانع من أي شك أو ريب أو خوف، فمن أيقن أن القرآن كلام الله تعالى، وأنه تنزيل العليم الخبير الذي خلق الكون وطلب من الناس أن يتفكروا فيه، وأخبرهم: أن التفكر في الكون والتدبر في القرآن

الكريم سيقودان إلى الإيمان بالله، واليقين بأن القرآن ليس كلام بشر، لأن فيه من الدلائل على مصدره ما لا يخطئه إلا أعمى البصر والبصيرة.

وعلينا أن نستصحب قوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصّلت: ٥٣].

وقوله سبحانه: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ ﴾ [النمل: ٩٣].

فعلينا ألا نخاف على كتاب ربنا مع مرور الزمن من كشوف العلم بل إن ذلك ليزيد المؤمن إيمانا، ويردد بثقة ويقين: العلم يدعو إلى الإيمان.

وأمر ثان لابد أن نستصحبه في رحلة تدبرنا للقرآن الكريم هو أن هذا الكتاب العظيم موجه إلى البشرية كلها في أزمانها وأقطارها المختلفة، فهو ليس للعرب وحدهم فخطابه للناس يملأ جوانبه، ونداء الرسول عليه وآله الصلاة والسلام الذي علمه إياه القرآن يخاطب الناس كلهم: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وهو كما قال له القرآن الكريم: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

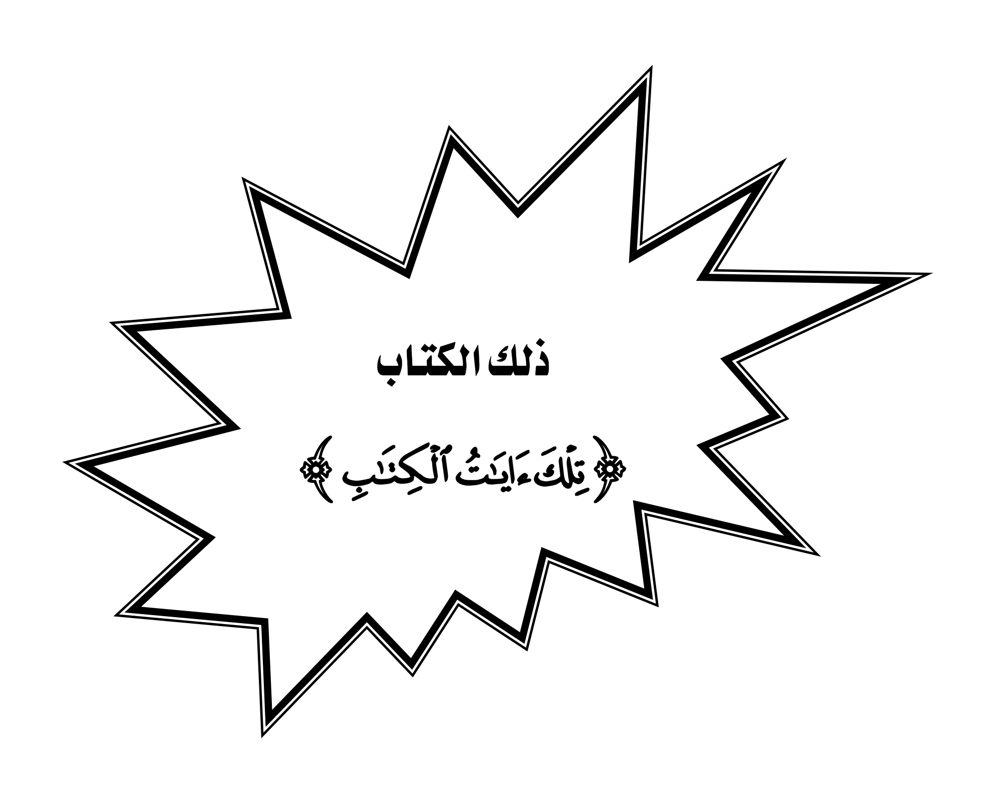
وأمر ثالث هو: أنه لا خوف على القرآن من خطأ في الفهم يقع فيه مفسر أو متدبر للقرآن الكريم، وكم في كتب التفسير من أخطاء نقول ونحن نقرؤها أخطأ المفسر في فهم مراد الله من كلامه، ويبقى القرآن الكريم ضياء وذكرا وشمسا تشرق في القلوب وفي الآفاق بنور الهداية، يحملنا على أجنحة

آياته إلى آفاق الملأ الأعلى، ويجوب بنا أقطار السماوات والأرض، وينور عقولنا وقلوبنا وهو يجول بنا في آيات الله تعالى الظاهرة والباطنة: في أنفسنا وفي الأرض، وفي كل مخلوق من مخلوقات الله تتجلى صورته في مرآة هذا الكتاب العظيم المنزل من الرب العليم الحكيم.

وأخيراً علينا أن نتذكر أن التفسير هو بوابة لإدراك إعجاز القرآن الكريم الذي يعلم به من يعرف العربية ومن لا يعرفها أن هذا الكتاب من عند الله تعالى، وتنكشف دلائل الإعجاز المضمن فيه. فمعلوم أن القرآن الكريم هو: رسالة ومعجزة معا؛ وذلك ما يقتضي دوام التدبر فيه ليصل قارئه درجة اليقين في أنه كتاب الله تعالى لا ريب فيه.

وفي هذا الكتاب مجموعة من الدراسات التي تناولت محاور معينة، وأساليب قرآنية، كما فيه مجموعة من المقالات التي تناولت آيات قرآنية كريمة معينة بالتفكر والتدبر.

أسال الله تعالى أن ينفعنا بكتابه العظيم، وينور قلوبنا به، ويجعلنا من المتدبرين.


ذلك الكتاب
﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾

ذلك الكتاب

بدأت منذ مدة من الزمن أقرأ القرآن الكريم وعلى هامشه تفسير، وكان التفسير الذي على هامش المصحف هو تفسير الجلالين، وبين حين وآخر أنظر في تفسير بعض ما أقرأ من باب التدبر ومعرفة ما قيل من تفسير في بعض الآيات، ووقفت عند الآية الثانية من سورة البقرة:

﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

ووجدت أن التفسير المكتوب لاسم الإشارة البعيد: ﴿ذَٰلِكَ﴾ هو: (هذا)، واستوقفني هذا التفسير، وقلت لو كان المعنى المقصود من ربنا لاسم الإشارة للبعيد هو اسم الإشارة للقريب لجاء النص ابتداء: هذا الكتاب لا ريب فيه، ولكنه جاء بصيغة: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾، وقلت لعل الذي جعل المفسر يقول بهذا هو كون التفسير مختصرا، وأراد تقريب المعنى، وانقدح في ذهني معنى فرجعت إلى (موقع التفسير) الذي أعدّته وتشرف عليه مؤسسة آل البيت ويضم تفاسير كثيرة لمختلف المذاهب والاتجاهات الإسلامية القديمة والحديثة، وبدأت أبحث في عدد من كتب التفسير المطولة منها والمختصرة، ما كان لأهل السنة ولغيرهم، فوجدت للمفسرين في ما استوقفني من شأن اسم الإشارة (ذلك) مذاهب وأقوالا بعضها تعذر قائله وبعضها يثير لديك العجب والاستغراب!!

وممن ذهب في تفسير ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ بـ "هذا الكتاب"، إضافة إلى تفسير الجلالين: الفيروزأبادي والسمرقندي.

وأشار عدد من المفسرين إلى هذا المعنى في سياق معان أخرى، ومن هذه المعاني ما أورده الماوردي أن المقصود بذلك الكتاب ثلاثة معان **أولها:** التوراة والإنجيل، **والثاني:** ما نزل من القرآن قبل هذا بمكة والمدينة، ومال إلى هذا الرأي، **والثالث:** يعني هذا الكتاب، وقد يستعمل ذلك في الإشارة إلى حاضر، وإن كان موضوعاً للإشارة إلى غائب.

و ذكر ابن عطية أقوالا في تفسير ﴿ذَلِكَ﴾ منها: التوراة والإنجيل، واللوح المحفوظ: أي الكتاب الذي هو القدر وقيل: إن الله قد كان وعد نبيه أن ينزل عليه كتاباً لا يمحوه الماء، فأشار إلى ذلك الوعد.

وقال الكسائي: لأنه إشارة إلى القرآن الذي في السماء لم ينزل بعد، وقيل: إن الله قد كان وعد أهل الكتاب أن ينزل على محمد كتاباً، فالإشارة إلى ذلك الوعد.

وقيل: إن الإشارة إلى حروف المعجم في قول من قال "الم" حروف المعجم التي تحديتكم بالنظم منها.

وأشار البقاعي إلى معنى بلاغي هو: الحديث عن القريب بما يدل على البعيد لعلو مقداره بجلالة آثاره وبعد رتبته عن نيل المطرودين.

ولم أجد في كتب التفسير ما انقدح في ذهني إلا إشارات من بعيد ووجدت في كثير مما قاله المفسرون نوعا من الحيرة في الوقوف على سر استخدام ﴿ذَلِكَ﴾، والمشار إليه هو القرآن الكريم، والعجب ممن جعله إشارة إلى التوراة والإنجيل أو إلى بعض القرآن الكريم الذي نزل من قبل، أو الإشارة

إلى الحروف المقطعة التي في أول السورة، أو الإشارة إلى سورة الفاتحة.

والذي انكشف لي من المعنى والله أعلم هو: أن هذا الكتاب الذي بين أيديكم وهو القرآن الكريم له وجود في السماء كما له وجود بين أيديكم، فهذا الكتاب الميسر لكم لقراءته ومشاهدته هو في منزلة عالية تجعله يشار إليه بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ عند الالتفات إليها كما يشار إليه بـ (هذا) وهو بين أيديكم، وذلك ليكون للقرآن في النفوس مهابة وجلالة.

وفي القرآن الكريم مصداق هذا الفهم في الحديث عنه في مواضع كثيرة، أشير إلى بعضها هنا ليكون عنه حديث من بعد بإذن الله تعالى، ومن ذلك قوله سبحانه:

﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٧ - ٧٩].

وهذه إشارة إلى منزلة القرآن في السماء، ومنه قوله تعالى:

﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزُّخرُف: ٤].

وقوله: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ١٢ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ١٣ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ١٤ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ﴾ [عبس: ١١ - ١٦].

وقوله: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ٢١ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾ [البروج: ٢١ - ٢٢].

إذا استحضرنا هذا كله كان الحديث عن ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ إشارة إلى منزلته

في السماء فيكون هذا القرآن الذي بين أيدينا هو ذلك الكتاب العلي الحكيم، المرفوع في اللوح المحفوظ بأيدي السفرة الكرام البررة، ونستغني بهذا الفهم عن كثير من وجوه التأويل التي تحير بدلا من أن تهدي.

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾

لفت نظري أن من التعبيرات القرآنية المتصلة بالكتاب تعبير: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ بعد أن وقفنا على تعبير ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ في مطلع سورة البقرة، ومن الإنصاف أن أقول إن الرازي في تفسيره قد أورد قولا وجدته يقترب مما انقدح لي من معنى وقد اطلعت عليه وأنا أعد لهذا المقال، وذلك قوله في معنى من معاني ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾:

"فغير ممتنع أن يقول تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ ليعلم أن هذا المنزّل هو ذلك الكتاب المثبت في اللوح المحفوظ"، وقد أشار الرازي إلى هذا المعنى في تفسيره لـ (تلك آيات الكتاب) في سورة يونس.

وقد لفت نظري أن عددا من السور في القرآن الكريم تبتدئ بقوله تعالى ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ فرجعت إلى هذه السور لأرى دلالة اسم الإشارة ﴿تِلْكَ﴾ وأربطه بفهمي لاسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ في مطلع سورة البقرة، وبحثت في (موقع التفسير) عن أقوال عدد من المفسرين فيها فوجدت منهم بعض ما وجدته في تفسير ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ ووجدت من بعض المفسرين من يفسر الكتاب بالتوراة والإنجيل وهو منقول عن مفسرين من التابعين، وإن كان من المفسرين من رفض هذا الفهم ولم يجد له وجها، ورجح أن المقصود بالكتاب هو القرآن الكريم ومنهم: الطبري وابن كثير.

وفي هذا الموضع، أي مطلع سورة يونس، يوضح الرازي بتفصيل أن من

المعاني المحتملة للفظ الكتاب: "الكتاب المخزون المكنون عند الله تعالى الذي منه نسخ كل كتاب،" ويورد الآيات الدالة على ذلك.

وقد نظرت في السور التي ابتدأت بقوله تعالى ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ومنها سورة يونس فوجدت أقوالا تدور حول معنى اسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ في سورة البقرة، فقيل: الآيات الموجودة في السورة، وقيل الإشارة إلى ﴿الٓر﴾ التي بدئت بها سورة يونس، والكتب التي قبل القرآن، ولكنني وجدت أن سورة يونس والسور الأخرى التي بدئت بهذا المقطع: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ تتضمن بيانا لآيات في الكون والتاريخ وآفاق الوجود، أفلا يعني هذا أن من الجائز أن نفهم قوله تعالى ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ بأن الإشارة ب ﴿تِلْكَ﴾ إلى ما يرد من الآيات في كل سورة من تلك السور؟ وهذا يقتضي أن نستحضر معنى كلمة (الآيات) التي تعني النصوص المكونة للسور من حيث اللفظ، ولكنها تعني في الوقت نفسه ما تدل عليه تلك النصوص من المعاني الخارجية التي تتجلى فيها قدرة الله تعالى، ويعرف من خلالها أن القرآن الكريم ليس كلام رسول الله عليه وآله الصلاة والسلام بل تنزيل رب العالمين. وبذلك تكون دلالة ﴿تِلْكَ﴾ غير محيرة ولا داعية إلى إرجاع الإشارة الواردة في ﴿تِلْكَ﴾ إلى ما لا يتفق مع النسق القرآني مما نجده من تكلف في بعض أقوال المفسرين.

ذلك ما أميل إليه، و ما يدل عليه استقراء الآيات وذلك ما سنمضي في بيانه بإذن الله.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾

في سورة يونس

قلت من قبل إن عددا من سور القرآن الكريم قد بدئت بهذا المقطع ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ومنها سورة يونس، والذي تبين لي من النظر في تلك السور أن المقصود باسم الإشارة في هذه السور آيات الله تعالى الدالة على قدرته التي ورد ذكرها في كل سورة منها، وذلك ما سأفصل القول فيه بإذن الله في السور التي بدئت بذلك المقطع. وأبدأ بسورة يونس.

الآية الأولى من سورة يونس قوله تعالى: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾.

وقد وقفت على ما ورد في أبرز كتب التفسير في شأن هذه الآية ودلالة اسم الإشارة فيها والمقصود بالكتاب فوجدت الطبري يورد عن مجاهد وقتادة أن المقصود بالكتاب: التوراة والإنجيل، وذكر قول آخرين لم يحددهم بقوله: "وقال آخرون: معنى ذلك: هذه آيات القرآن." وعقب على القولين مرجحا الثاني فقال: "وأولى التأويلين في ذلك بالصواب تأويل من تأوّله: هذه آيات القرآن، ووجّه معنى «تلك» إلى معنى «هذه»، "ومما ذكره الرازي من أقوال في هذا المجال قوله: "قوله: ﴿تِلْكَ﴾ يحتمل أن يكون إشارة إلى ما في هذه السورة من الآيات، ويحتمل أن يكون إشارة إلى ما تقدم هذه السورة من آيات القرآن،

وأيضاً فالكتاب الحكيم يحتمل أن يكون المراد منه هو القرآن، ويحتمل أن يكون المراد منه غير القرآن، وهو الكتاب المخزون المكنون عند الله تعالى الذي منه نسخ كل كتاب، "ومما ذكره ابن الجوزي في زاد المسير وفيه تلخيص لآراء عدد من المفسرين قوله: "وفي قوله: ﴿تِلْكَ﴾ قولان: أحدهما: أنه بمعنى «هذه»، قاله أبو صالح عن ابن عباس، واختاره أبو عبيدة. والثاني: أنه على أصله. ثم فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أن الإِشارة إِلى الكتب المتقدمة من التوراة والإِنجيل، قاله مجاهد وقتادة؛ فيكون المعنى: هذه الأقاصيص التي تسمعونها تلك الآيات التي وصفت في التوراة والإِنجيل.

والثاني: أن الإِشارة إِلى الآيات التي جرى ذكرها، من القرآن، قاله الزجاج.

والثالث: أن ﴿تِلْكَ﴾ إِشارة إِلى ﴿الٓرۚ﴾ وأخواتها من حروف المعجم، أي: تلك الحروف المفتتحة بها السُّوَر هي ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ لأن الكتاب بها يتلى، وألفاظه إِليها ترجع، ذكره ابن الأنباري."

وأعود إلى القول: إن الذي أراه أن المقصود بـ ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ هو ما ورد في سورة يونس نفسها من الآيات الدالة على الله تعالى وقدرته وحكمته وصدق نبيه عليه وآله الصلاة والسلام في نبوته.

وإذا نحن تدبرنا مطلع السورة وجدناها تتحدث عن فكرة الرسالة

وتعجّب الناس من إرسال رسول إليهم ثم طبيعة عمل الرسول وهي: البشارة للمؤمنين والإنذار للكافرين.

والموضوع الثاني هو التعريف بالله تعالى، وأترك للقراء الكريم أن يراجعوا سورة يونس لتتبع الإشارات التي سأذكرها، ولربط ما ورد في سياق السورة مما يدل على أن المقصود بـ ﴿ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ ما تتحدث عنه آيات السورة من دلائل القدرة الإلهية، وهذا ليس تخمينا بل نصت عليه آيات السورة بصراحة في حديثها عن الرسول والرسالة وعاقبة المؤمنين في الدنيا والآخرة وتجلي صفات الله تعالى في الكون في آيات بينات.

في الآية الخامسة والسادسة من سورة يونس نقرأ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ﴾

في هاتين الآيتين نص واضح على آيات لله تعالى في الشمس والقمر وفي اختلاف الليل والنهار وما خلق الله تعالى في السماوات والأرض من دلائل القدرة والحكمة التي تجعل وصف الكتاب بالحكيم في موضعه في هذه السورة، لأن ما ورد فيها من الآيات الكونية وعواقب الأمم المكذبة لأنبيائها فيه بيان للحقائق المطابقة للواقع، والإشارة إليها بـ ﴿تِلۡكَ﴾ منطقي لأننا نرى آيات تحدثنا السورة عنها منها القريب ومنها البعيد ومنها الخفي ومنها الظاهر،ومنها

ما أصاب بعض الأمم السابقة من عقوبة لتكذيبها برسالات الله تعالى.

وتبين السورة موقف الكفار من الرسول والرسالة في أكثر من موضع من السورة، ومن ذلك قوله تعالى في الآيتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَـٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَـٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

إن القرآن الكريم هو الآية الدالة على صدق نبوته فلو تدبره المنكرون لوجدوا فيه ما يدلهم على الله تعالى، ومن أدلة ربانية القرآن الكريم شخصية الرسول الكريم الذي عرفه قومه قبل الرسالة لا يقرأ ولا يكتب فأنى له أن ينتج مثل هذا القرآن؟؟

ولنقرأ الآية العشرين: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾.

والآية التي طلبوها هي معجزة حسية وقد كان التجاهل هو موقف القرآن الكريم من طلبهم لأنه طلب غير جاد، فلو أرادوا الحق لرأوه في القرآن الكريم الذي هو آيات بينات في صياغته وفي ما تدل عليه في الآفاق وفي الأنفس وفي التاريخ وفي المستقبل وفي التشريع، وفي ما يلفت إليه الأنظار من الآيات الدالة على منزّل القرآن الكريم على رسوله.

ونمضي مع سورة يونس ونحن ننظر إلى ﴿تِلْكَ﴾ الآيات التي تحدثنا عنها، وهي آيات رأيناها من قبل في السماء: في آيات الشمس والقمر، وآيات الليل والنهار، وآيات الله في الإنسان في أحواله في السراء والضراء، والكفر والإيمان.

إن الآيات التي أفهمها من قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ هي الآيات الدالة على الله تعالى، التي تقول لمن ينظر فيها نظر المتبصر الواعي: أنا دليلك على الله، فأنا لم أوجد نفسي، وليس لي خالق إلا الله تعالى، وتدل على صدق من ينبه إلى تلك الآيات بالوحي المنزل عليه مما لم يكن له ولا لقومه عهد به من قبل.

نمضي مع سورة يونس بحثا عن الآيات التي أشار إليها مفتتح السورة فنجد من الآيات الدالة على الله تعالى ما يلمسه الإنسان في أحوال الاضطرار فيعلم يقينا أن له ربا يسمع نداءه ويجيب دعاءه، ولكن من الناس من يعودون إلى الغفلة ونسيان الله بعد زوال حالة الاضطرار، ولنستمع إلى سورة يونس التي تضع أمامنا تلك الآيات:

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ .

هذه آية تشير إلى قانون من قوانين حياة البشر أو نموذج بشري متكرر في الزمان والمكان، ويلفت النظر قول الله تعالى ﴿لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ﴾ وإذا فهمنا

الآية في ضوء ما ورد من طلب قريش لآية ونزول القحط بهم عدة سنين ثم دعوة الرسول ﷺ السقيا لهم فنزل المطر، ومع ذلك لم يؤمنوا، ومضوا في إنكارهم واستهزائهم، ولكن يظل للتعبير القرآني دلالة لا يقوم مقامها تفسير يدركها الإنسان ويعجز عن التعبير عنها!! مكر في الآيات: إنها آية القحط ثم السقيا واستجابة الدعاء ثم الكيد الخفي مع كون الآيات ماثلة للعيان. إنه عمى البصر والبصيرة، وهاهي بعض الآيات التي أشار إليها مفتتح السورة.

ومع هذه القاعدة العامة يأتي المثل المقرب للفكرة ولنقرأ هذا النموذج الإنساني في مشهد حي:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

بعد هذا المشهد يأتي بيان حقيقة ﴿مَّتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ التي يغتر بها الناس بمشهد طبيعي يكشف آية من آيات الله في زينة الدنيا وسرعة زوالها

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَـٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ

كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

وعلينا أن نتنبه إلى قول الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ألسنا هنا أمام آيات أخرى يشير إليها افتتاح سورة يونس ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾؟

إنها آيات تتعلق بطبيعة الإنسان نراها في مرآة الطبيعة التي تصور حقيقة الحياة الدنيا.

ونمضي مع سورة يونس بحثا عن آيات الله فيها فنجد حديثا عن تلك الآيات في الرزق والسمع والبصر والإحياء والإماتة تلك الآيات التي تشير إلى الله تعالى بقول: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ﴾. لننظر في الآيات:

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾.

ونجد آيات أخرى متتابعة: بدء الله تعالى للخلق وإعادته والهداية إلى الحق ثم التحدي بهذا القرآن الحق الذي لا يمكن أن يفترى، وتحدي من يزعمون أنه مفترى أن يأتوا بسورة مثله، وتلك دلائل على ربانية القرآن وصدق نبوة محمد عليه الصلاة والسلام آيات يشار إليها في بداية سورة يونس ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ووراء ذلك آيات أخرى في السورة.

نجد الآية السابعة والستين تحدثنا عن آية كونية من آيات الله تعالى لها

تماس مباشر بحياة البشر في كل يوم وهي آية الليل والنهار وما يكون فيهما من آيات ربانية يستكشفها العقل المتدبر وذلك في قوله تعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴾.

وفي الآية إشارة إلى ما ينبغي أن يكون في الليل من السكون بالإيواء إلى البيوت والنوم، وفي الليل تتجلى آيات الله تعالى في السماء، كما تتجلى في غياب نور الشمس، وتتجلى في آية النوم نفسها التي يدخل فيها الإنسان قسرا ويتخلى عن كل شيء بل إن النوم نوع من الوفاة أو هو موت أصغر، وفي النهار المبصر آيات تتجلى، ففيه نور الشمس الذي يجعل النهار مبصرا، وبإبصاره يبصر الناس والكائنات الحية، وفي النهار آية الاستيقاظ من النوم، وعودة الوعي والقدرة على الحركة إلى الإنسان بعد أن استرد قوته وجدد نشاطه بالنوم، وفي النهار تتجلى آيات يعجز الإنسان عن الإحاطة بها مما يتجلى في حركة الإنسان وحياته من تجليات أسماء الله الحسنى في السوق والحقل والولادة والموت وفي كل جانب.

وتحدثنا السورة عن آيات الله تعالى في إهلاك أمم سابقة كذبت رسل الله الذين أتوها بآيات بينات فكانت عاقبتهم الهلاك، وتلك آيات تتجلى في قصة نوح مع قومه، وفي قصة موسى عليه السلام مع فرعون، وتتجلى في قصة فرعون آية أخرى هي نجاة جسد فرعون بعد أن غرق ليكون لمن خلفه آية ويعلموا أن هذا الذي كان يدعي الألوهية والربوبية فيهم قد هلك، وليعلموا

أن لا إله إلا الله.

ويأتي الحديث عن الآيات بصورة تستوقف الناظر في خطاب موجه للرسول ﷺ يظهر فيه جلال الربوبية وفيه تثبيت للنبي ﷺ على الحق الذي أنزل إليه وليقول للناس من بعد: إن كان هكذا خطاب الله تعالى لنبيه فكيف يكون حال من دونه؟

واقرأ الآيات وتدبر الموقف: ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ .

وهذا القول الرباني الموجه إلى الرسول ﷺ من دلائل نبوته، وإلا هل يمكن أن يقول هذا القول غير الرب في مخاطبة عبده ورسوله؟

ويأتي الحديث في سورة يونس من بعد عن آيات الله تعالى المبثوثة في السماوات والأرض التي يبصرها من صفت فطرته، وانجلت حواسه ولم تتغبش بالألفة والعادة المذهبة لروعة الآيات وذلك في قول الله تعالى:

﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

الآيات أكثر من أن تحصى ولكن عمى القلب يعمي عنها. وكأن هذه الآية ترد على ما كان المشركون يطلبونه من آيات حسية كالتي جاءت الأمم السابقة، ولذلك ختمت السورة بتوجيه إلى النبي ﷺ بعد كل ما ورد في السورة من دلائل القدرة والآيات الدالة على الله وذلك في قول الله تعالى:

﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴾.

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾

في سورة يوسف

السورة الثانية التي افتتحت بـ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ هي سورة يوسف، ويلفت النظر أن الكتاب وصف في سورة يونس بـ ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ وفي سورة يوسف بـ ﴿ٱلْمُبِينِ﴾، ومن تدبر سورة يونس وجد فيها آثار الحكمة الربانية المتجلية فيما تحدثت عنه من الآيات الربانية في الكون والأنفس والتاريخ.

ومن نظر في سورة يوسف وجد أنها جواب عن سؤال أشارت إليه الآية السابعة: ﴿ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ فكانت مبينة لما سألوا عنه مما لم يكن للنبي ﷺ ولا لأهل مكة علم به فكانت هذه السورة بما تضمنته من أخبار تاريخية آيات دالة على ربانية القرآن الكريم وصدق نبوة محمد ﷺ. وهذا ما نصت عليه الآية الأخيرة في سورة يوسف في قول الله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

وارجع إلى دلالة الآية الأولى ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾، فاسم الإشارة ﴿تِلْكَ﴾ هنا يدل على ما في سورة يوسف من (الآيات) أي الأدلة والبراهين الدالة على قدرة الله تعالى وحكمته وتدبير وعلى صدق نبوة محمد ﷺ الذي علمه ربه ما لم يكن له به علم من نبأ ما سبق، ونبوءات تالية، ومن

خبر الملأ الأعلى، ومن ظاهر أحوال الكون وباطنه، فقد جاء فيها من نبأ يوسف وإخوته في حديث مفصل في قصة متكاملة وردت في القرآن الكريم مرة واحدة ولم يتكرر ذكر أحداثها في القرآن الكريم بل لم يذكر يوسف عليه السلام في غير هذه السورة إلا مرتين مرة في سورة الأنعام في الآية ٨٤ وفي الآية ٣٤ في سورة غافر.

والآيات المشار إليها في: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾.

هي ما تجلى في سورة يوسف من دلائل القدرة الإلهية التي رعت يوسف منذ كان طفلا صغيرا، فأعطاه الله تعالى الرؤيا الصالحة التي رسمت مسار حياته، وكان ما آتاه الله تعالى من الخصائص سببا في إثارة الحسد في نفوس إخوانه الذين كادوا له كيدا حتى هموا بقتله ثم استقر أمرهم على نفيه، وأرادوا أمرا وأراد الله بحكمته أمرا، لتتجلى آيات قدرته ودلائل حكمته، فقد كان نفيه من ديار أهله سببا لمحنة طويلة بدأت في قصر عزيز مصر أول الأمر رخاء حين طلب العزيز من امرأته أن تكرم مثواه وتوسم في يوسف عليه السلام الخير أن يكون سبب نفع أو يكون ولدا بالتبني، ولكن الجمال اليوسفي أخرج امرأة العزيز عن وقارها وأنساها وصية زوجها ولم تنظر إليه بعين السيدة أو الأم بل نظرت إلى ذكورته بعين أنوثتها، وكان هواها سبب فتنة له نجاه الله تعالى منها، وكانت سبب محنة له في السجن أراد من ألقاه فيه أمرا وأراد الله أمرا آخر. ومن تدبير الله وتقديره وآيات حكمته أن يحدث مع يوسف عليه السلام ما حدث وأن يتوافق دخوله السجن مع دخول الفتيين اللذين كانت لهما صلة بملك مصر وأن يريا رؤيا وأن يؤولها لهما وأن ينجو أحدهما ويعمل ساقيا للملك وأن يرى الملك رؤيا فتعجز حاشيته عن تأويلها ويكون التأويل لدى يوسف

عليه السلام الذي تذكره صاحبه بعد أن لبث في السجن بضع سنين لتنضج حكمته ويكون مهيأ للدور التاريخي الذي أعده له الله تعالى وسلحه بالحكمة والعلم ليكون قادرا على إنقاذ مصر من محنة الجدب التي ضربتها، وهو لم يتلق العلم على أيدي العلماء والحكماء في مدارس السياسة والاقتصاد بل علمه الله تعالى من علمه اللدني ما جعله عزيزا في مصر يتبوأ منها حيث يشاء، ومن آيات الله الدالة على قدرته وحكمته أن يكون الجدب سببا لعودة الصلة بين يوسف وأهله فيأتي إخوته إلى مصر يطلبون الميرة فيعرفهم وهم له منكرون، ثم يكون بينه وبينهم ما قصته السورة ولتشتد المحنة على يعقوب عليه السلام ثم يجتمع الشمل في مصر في مشهد يتجلى فيه الجلال والجمال والعبودية لله، والتعالي على الكيد والنظر إلى الآخرة من قمة هرم السلطة في الدنيا لتتجلى في السورة والقصة آيات الله تعالى للسائلين ولقراء القرآن الكريم من بعد ليشهدوا أن الله عليم حكيم قدير وليعلنوا بيقين أن محمدا ﷺ رسول الله وليقولوا في ختام السورة وهم يشيرون إلى التاريخ اليوسفي وإلى ما يتجلى من أشباه لتلك الأحداث:

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ وليقرؤوا بيقين لا ريب فيه:

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ .

وليقرؤوا ختام السورة التي تجلت فيها آيات الكتاب المبين: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾

في سورة الرعد

السورة الثالثة التي ورد في مطلعها قول: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ هي سورة الرعد في قوله تعالى: ﴿الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

والذي يلفت النظر في هذا المطلع هو أن لفظ الكتاب جاء غير موصوف كما ورد من قبل في سورة يونس حين وصف بـ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾وفي سورة يوسف حين وصف بـ ﴿ٱلْمُبِينِ﴾، ففي السورتين السابقتين لفت نظر إلى الآيات الواردة فيها وإلى خصيصتين من خصائص الكتاب هما: الحكمة والإبانة، وهنا النظر موجه إلى ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ﴾.

وقد جاء بعد الآية الأولى مجموعة من آيات السورة تكشف عن بعض آيات الله تعالى في هذا الوجود، ففي الآية الثانية إشارة إلى آيات علوية سماوية وهي: رفع الله تعالى السماوات بغير عمد، وتسخير الشمس والقمر وجريهما إلى أجل مسمى، وهي مشاهد بينات يراها الناس بانتظام ولكن قل منهم من يتنبه إلى أنها ﴿ءَايَٰتُ﴾لا بد أن تدلهم على الرب القدير الذي خلق وقدر وتجعلهم على يقين منه ويشهدوا تجليات أسمائه في الوجود، و لذلك جاء في

ختام الحديث عن هذه الظواهر الكونية قوله تعالى: ﴿يُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾وهذه هي بعض الآيات التي أشار إليها مطلع السورة باسم الإشارة: ﴿تِلْكَ﴾.

وفي الآية الثالثة حديث عن آيات كونية أخرى تدل على الله تعالى ولكنها آيات أرضية أو تتجلى على الأرض وهي: الأرض الممدودة والجبال الرواسي والأنهار الجارية والثمرات التي خلق الله تعالى من كل منها زوجين، وآية الله تعالى في الليل والنهار، إنها آيات دائمة التجلي للإنسان ولها مساس بحياته، والقرآن الكريم يشير إليها ويلفت الأنظار إلى ما يتجلى فيها من بديع القدرة الإلهية المهيمنة عليها فهي تستحق أن تكون موضع تفكر وألا يمر بها الإنسان وهو معرض عنها، غافل عما فيها من دلائل القدرة والحكمة، ولذلك جاء ختام الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

وفي الآية الرابعة اقتراب أكبر من آيات الله تعالى في الأرض وما فيها من تجلي آيات الله في القطع المتجاورة التي تختلف في خصبها وما يكون فيها من أنواع الأشجار المثمرة والزروع، وقد خص بالحديث الأعناب والنخيل لكثرة انتفاع الناس بهما، ولفت النظر إلى بديع صنع الله تعالى في نمو الأشجار فمنها ما تتشعب سيقانها من أصل واحد ومنها ما تنبت منفردة، وفي هذا المشهد البديع المليء بالخضرة والنضرة والأوراق الخضراء والأزهار والثمرات المختلفة في اللون والشكل والطعم مما يجعل بعضها مفضلاً على بعض، في هذا الجو يأتـي التنبيه إلى ضرورة تعقل الآيات المتجلية في المشهد وعدم الغفلة

عنها أو الانشغال بزينة المنظر وما سيكون من ثمرات تشغل بقيمتها المادية المتوقعة عن بديع صنع الله تعالى أو الانشغال بشهوة الأكل منها، ولذلك جاء التعقيب على هذا المشهد البديع دعوة إلى التعقل بربط جوانب المشهد التي تقول بلسان الحال والمقال: هذا صنع الله وخلقه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

وفي مقابل هذه الآيات التي تتجلى فيها نعم الله تعالى تورد سورة الرعد في الآيتين الثانية عشرة والثالثة عشرة آيات تتجلى فيها نعم الله تعالى وعظمته في مشهد السحب الثقال وتتجلى هيبته وجلاله وتتصاغر قوة المتكبرين ويملأ الرعب قلوبهم في مشهد عاصف مهيب يتجلى فيه البرق والرعد والصواعق، وفي هذا المشهد العاصف القاصف نسمع تسبيح الرعد بحمد الله فنرى المشهد من وجه آخر لا يكون الرعب فيه هو المهيمن بل يكون شهود آيات الله تعالى التي أشار مطلع السورة إليها لينتشلنا من الخوف المنبعث من تفاصيل المشهد ويجعلنا نلجأ إلى الله تعالى الذي خلق تفاصيله ونردد مسبحين مع الرعد المسبح والملائكة، والعجيب في هذا المشهد أن الرعد يسبح حمدا لله، وأن الملائكة يسبحون خوفا منه!! المشهد مخيف لا ريب ولكن عاقبة الرعد أمطار غزيرة تغيث الأرض ويكون من ثمراتها ما يستوجب الحمد!!

سبحان الله عما يجادل فيه الغافلون الذين لا يشق نور البرق ظلام قلوبهم، ولا يزلزل الرعد أركان غفلتهم.

وتمضي السورة تتحدث عن أصناف البشر وأحوال المؤمنين والكافرين

لتستبين السبل وتنكشف الحجب ونطل من خلالها على الآخرة وأحوال من يؤول إليها من الناس الذين يجني كل منهم ثمرة ما قدم، وترد في الآية السابعة والعشرين إشارة إلى طلب الكفار (آية) تثبت صدق نبوة سيدنا محمد ﷺ وتجعلهم يؤمنون بالله، ويكون التعقيب على هذا الطلب بقول الله تعالى:

﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾.

وبعد ذلك يأتي الرد على هذا الطلب ببيان أن القرآن آية لو كانوا يعقلون، وهي آية تتأثر بها الكائنات غير البشرية في الأرض:

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ﴾ أي لكان هذا القرآن المنزل عليك.

الآيات تملأ الوجود ولا تحيط بها الحواس ويعجز عن إدراكها العقل، ولكن عمى البصيرة يشل الحواس عن حقيقة وجود الإنسان الذي جاء النبي ﷺ ليكشفه للناس. ولو أنهم تبصروا في ما يدعوهم إليه وما يطلبه منهم لعلموا أنه رسول من رب العالمين يدعوهم إلى الاستقامة وفعل الخير وترك الشر لتكون عاقبتهم خيرا في الدنيا والآخرة.

وفي ختام السورة التي وردت فيها آيات تزلزل القلوب وتنير العقول وتصحح مسار من يريد الهداية تأتي آية تصف حال الكفار الذين لا يجدي معهم الحوار ولا تنفعهم (الآيات) أيا كانت بل ينفع معهم تربص العاقبة وانتظار المآل:

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾.

وهكذا إذا نحن قرأنا ما في السورة من تجليات ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ وجدنا معنى تلك الإشارة في مطلعها ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ﴾. ولله الحمد أولا وآخرا.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾

في سورة الحجر

سورة الحجر من السور التي افتتحت بـ: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وقد أضيف إلى ذلك قول الله تعالى ﴿وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ وكما قلت من قبل الذي أفهمه من: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ما يرد من آيات الله تعالى الدالة عليه في السورة وهذا ما نص عليه الرازي في شرح ﴿تِلْكَ﴾ بقوله: "إشارة إلى ما تضمنته السورة من الآيات" مع أنه في السور السابقة المشابهة في الافتتاح أشار إلى احتمالات في الفهم لكنه هنا في سورة الحجر ذكر هذا الفهم وحده.

ومما يستحق الوقوف عنده هو ما جاء بعد ذكر آيات الكتاب ﴿وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ والذي أفهمه من هذا الذكر بعيدا عن التعقيد في الفهم أن لهذا الكتاب المنزل من عند الله تعالى صورتين باقيتين: صورة مكتوبة، فهو كتاب، وصورة مقروءة فهو قرآن، ومنذ نزل القرآن الكريم وهو متداول بين المسلمين بهاتين الصورتين، فهو مكتوب في السطور تجري وراء سطوره وآياته أعين القراء، ومحفوظ في الصدور تجري به ألسنة الحفظة. وهو قرآن مبين كاشف لحقيقة الوجود ولغاية الوجود الإنساني، مجيب عن كل ما يراود الإنسان من أسئلة في رحلة حياته.

نحن في هذه السورة أمام تحد من الكفار للرسول ﷺ يتمثل بالتكذيب

بكونه رسولا بل بسوء الأدب معه ومخاطبته باستهزاء وطلب دليل على رسالته، وهو طلب تعجيز في ما يرون لا طلب استدلال وطلب حق، وذلك بقولهم:

﴿ وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾.

إنهم يطلبون معجزة مادية تراها أعينهم، ولكن الرب الخبير بعباده يبين حقيقتهم وحقيقة طلبهم فيقول:

﴿ وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَـٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٌ مَّسۡحُورُونَ ﴾.

بعد هذا الموقف تبدأ السورة بعرض آيات الله تعالى الدالة عليه، تلك الآيات التي وقعت الإشارة إليها في بداية السورة باسم الإشارة ﴿تِلۡكَ ءَايَـٰتُ ٱلۡكِتَـٰبِ﴾ إننا أمام آيات سماوية تتجلى في بروج السماء، وحفظ السماء من استراق الشياطين للسمع:

﴿وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظۡنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيۡطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾.

وأمام آيات أرضية تلفت النظر إلى بعض خواص الأرض وما فيها من آيات المد والجبال والنبات الموزون والمعايش المختلفة، وخزائن كل شيء التي يتنزل منها ما يحتاج إليه البشر من أشياء ثم الرياح اللواقح وما تحمله من

السقيا، ثم آيات الإحياء والإماتة التي تتجلى للعيون:

﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ (١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ (٢٠) وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢١) وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ (٢٢) وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴾.

ونجد الحديث عن آيات الله صريحا عقب الحديث عن قصة سيدنا إبراهيم مع الملائكة الذين جاؤوه بالبشرى بغلام عليم قبل توجههم إلى لوط عليه السلام وما حل بقومه من عذاب وذلك في قوله تعالى:

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥) وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ (٧٦) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

ونحن هنا أمام آيات ربانية تتجلى في الانتقام ممن كذبوا رسوله وارتكبوا الفاحشة الشنيعة فحق عليهم عذاب فيه آيات للمعتبرين، آيات دالة على العزة والقدرة الإلهية التي تنتقم من المجرمين، وفي ما بقي من آثار أولئك المكذبين عبرة للمؤمنين الذين يصدقون كلام ربهم ويرجون رحمته ويخافون عذابه.وتتجلى آيات الله كذلك في انتقامه من أصحاب الأيكة (قوم شعيب) وأصحاب الحجر (قوم صالح) الذين جاءتهم الآيات الدالة على الله تعالى وصدق رسولهم فكذبوا فانتقم الله تعالى منهم وترك آثارهم عبرة للمعتبرين.

بعد هذا الحديث عن آيات الله تعالى في الانتقام من المكذبين وما سبق من

الحديث عن آيات الله السماوية والأرضية يأتي الرد على ما طلبه المشركون المستهزئون من آيات ببيان أن الله تعالى آتاه آيات بينة ولكن المشركين لا يبصرون، وذلك في آيات القرآن العظيم الذي منه السبع المثاني، وأشهر الأقوال فيها أنها الفاتحة، فالقرآن معجزة تدل على أن محمدا رسول الله حقا، وأن ما يتلوه عليهم منه هو كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾

في سورة الشعراء

سورة الشعراء من السور التي جاء في افتتاحها بعد الحروف المقطعة: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾.

والسورة رد مبين على الكافرين الذين طلبوا آية حسية تكون دليلا على نبوة محمد عليه وآله الصلاة والسلام، وكأن النبي ﷺ وقد رأى إعراضهم رغب في آية تكون سببا في هدايتهم، ولكن الله تعالى الخبير بخلقه بين أنهم كذبوا وأن الآية الحسية لن تفتح قلوبهم وذلك شأن من سبق من الكافرين من أمثالهم الذي جاءتهم الآيات فلم يؤمنوا.

والله تعالى قادر على أن ينزل آية تخضع لها أعناق الكافرين ولا يملكون تكذيبها إلا أن يقولوا عن النبي ﷺ إنه ساحر، ولو نزلت الآية الحسية وكذبوا بها لأصابهم العذاب الذي أصاب المكذبين من الأمم الغابرة، قال الله تعالى بعد أن أشار إلى آيات الكتاب المبين التي ستتجلى في هذه السورة: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾.

وقد تكرر التصريح بالآيات الربانية البينة في السورة في ثمانية مواضع بقول الله تعالى:

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

وقد جاء ذلك أول مرة في مطلع السورة الذي وردت فيه إشارة إلى آيات الله تعالى في الأرض التي أنبت فيها من كل زوج كريم، وهي إشارة موجزة مكتنزة لأنها تدعو الإنسان إلى التفكر في عالم النبات الذي يتكرر فيه تجلي الآيات في كل وقت من أوقات السنة، في أزواج من النبات الذي وصف بالكريم، والكرم يكون في كثرة العطاء، ويتجلى الكرم في كل ما تتدفق به الأرض من النباتات التي يتحول فيها الطين إلى طيبات من الطعام الذي يسد حاجة الإنسان وما يعيش على الأرض من الكائنات؟

أو ليس في هذا المشهد الذي نطل عليه من آية واحدة آفاق غير محدودة من الكرم الدال على الله الكريم العزيز الرحيم؟

أفتخرج الأرض الأزواج الكريمة من باطنها بفعل ذاتي وقدرة ذاتية أم أنها مائدة ممدودة من رب العالمين الحكيم الخبير؟؟

أليس في ذلك آية بل آيات، ولكن لقوم يبصرون ويعقلون ويتفكرون؟؟.

بعد هذه الوقفة مع آية الله تعالى في النبات يبدأ الكشف عن آيات الله تعالى في التاريخ الباقية آثاره في آثار الأقوام المهلكين، وذلك بإيراد طرف من سيرة مجموعة من الأمم وذكر ما حل بهم من العذاب لتكذيبهم رسل الله عليهم السلام وكان ذلك الإهلاك آية دالة على الله العزيز الرحيم.

أول من ذكر من الأقوام المكذبين فرعون وقومه، وهو ليس من المتقدمين في التاريخ زمنيا ولكنه من المتقدمين في الكفر وادعاء الألوهية والربوبية فكان تقديم ذكره وما كان منه من عناد وما حل به من إهلاك، كان ذلك لشناعة فعلته وليكون عبرة لرؤوس الكفر المكذبين من أمثاله الذين يقودون أقوامهم

إلى العبودية في الدنيا وإلى نار جهنم يوم القيامة.

لقد جاء في هذه السورة تلخيص واف لقصة موسى عليه السلام وتجلى كفر فرعون وطغيانه في أوضح صورة، وتجلت قدرة الله تعالى في إغراقه وقومه في البحر ونجاة موسى عليه السلام ومن معه برحمة الله، أليس ذلك من آيات الله تعالى؟

ولذلك جاء التعقيب على هذه القصة في ختامها:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

بعد الحديث عن إمام من أئمة الضلال وما حل به تذكر السورة إماما من أئمة الهدى إمام التوحيد خليل الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام وهو يحاج قومه وأباه، ويتجلى صوت التوحيد في هذا المشهد ولا نسمع صوت الكافرين كما كان من قبل في قصة موسى عليه السلام وفرعون ولا يعرض علينا المشهد عذاب قوم إبراهيم في الدنيا بل ما سيحل بهم من عذاب في النار وكيف سيتمنى الكافرون لو عادوا إلى الدنيا ليؤمنوا، وجاء التعقيب على ذلك بقوال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

والآية هنا تتجلى في موقف الضعف للكافرين يوم تنكشف الحقائق ولا يملكون من أمرهم شيئا، وهاهم ما زالوا في الدنيا والتصحيح ممكن والنجاة مفتوحة الباب، ومن يحدثهم عن ذلك هو الله العليم الحكيم العزيز الرحيم.

وتكرر التصريح بالآية البينة بعد قصة كل من نوح وقومه وإغراقهم، وهود وقومه وإهلاكهم وثمود وصالح وتعذيبهم، ولوط وقومه وإمطارهم مطر السوء، وشعيب وقومه وتعذيبهم بالظلة.

في كل ذلك آيات بينات أشار إليها مطلع السورة، وختم الحديث عن الآيات بآية أدركها مشركو العرب وهي:

﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾.

وانتهت السورة إلى البيان الحاسم بربانية هذا الكتاب ونفي ما تقوله الكافرون وذلك بقوله تعالى:

﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾.

هذا بعض ما انكشف لي من آيات الله تعالى التي أشار إليها مطلع سورة الشعراء والله أعلم.

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾

في سورة القصص

سورة القصص من السور التي افتتحت بقول الله تعالى في الآية الثانية: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾. وفي هذه السورة نجد بيانا لتجليات آيات الله تعالى الدالة عليه بأسمائه الحسنى التي نجد آثارها في قصة موسى عليه السلام وفرعون، كما نجدها في أمور أخرى وإن تكن المساحة الكبرى في السورة لنبأ موسى عليه السلام وفرعون.

ومن يقرأ هذه السورة بتدبر يجد البيان الواضح لتجليات الفعل الإلهي والتدبير الرباني في صورة واضحة لنرى كيف تنسج خيوط القدر، ويمضي التدبير الرباني يسوق الأمور وفق الحكمة والتقدير المحكم.

ونحن في هذه السورة التي تتجلى فيها آيات الكتاب المبين أمام إجرام يتجلى في موقف فرعون يصوره قول الله تعالى:

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾.

ونحن أمام إرادة ربانية تغير المعادلة وتقلب الموقف وتحول المستضعفين في الأرض إلى أئمة وارثين ممكن لهم في الأرض في صورة لم تكن تخطر ببال أشد الناس قدرة على التخيل، ولكنه أمر الله تعالى وتدبيره وتجلي آياته.

نمضي مع السورة ونحن نرى الخطة من بداياتها لتكون نموذجا حيا نرى من خلاله الفعل الإلهي كيف يدبر أمر الوجود في ما نعلم وما لا نعلم.

نرى التدبير الإلهي في شأن موسى عليه السلام الطفل الرضيع الذي احتارت أمه ماذا تفعل به لينجو من القتل الذي أصدره فرعون على أطفال بني إسرائيل. وتتجلى آيات الله في هذه السورة في أوضح صورها:

فيكون الوحي الرباني في قلب أم موسى لخطة النجاة التي هي الخيط الأول في الخطة التي ستقوض ملك فرعون.

ويكون اليم ملاذا آمنا من القتل.

ويكون الحب في قلب امرأة فرعون قارب النجاة للطفل الذي ألقى به اليم على شاطئ قصر فرعون، ولتهتف امرأة فرعون بما ينطق به الله تعالى لسانها: ﴿لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾. ويأتي التعقيب الرباني بما يشير إلى التدبير الحكيم: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾.

ويأتي الخيط الثاني في التدبير الرباني: الرضاعة، فالطفل رضيع ولا بد له من مرضع، وكم في مصر من المراضع، ولكن التدبير صدر من الرب الحكيم سبحانه ألا يرضع موسى عليه السلام من غير أمه، فيعود موسى عليه السلام إلى أمه ترضعه في قصر فرعون مأجورة منه مطمئنة البال، وقد صدقها ربها وعده بأن يرده إليها ولتنتظر بقية الوعد من بعد: ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾.

وتمضي السورة وهي تقص علينا نبأ موسى عليه السلام وفرعون ولتتجلى الآيات آية بعد آية. وتطوى مراحل من الزمن لنرى موسى عليه السلام وقد بلغ أشده وآتاه الله تعالى علما وحكما، ويكون من الأحداث ما يدفعه خارج مصر بعد حادثة القتل غير العمد وتحوّل موقف فرعون وملئه منه، فخرج خائفا يترقب، ولكن عناية الله تعالى لم تفارقه فمضى نحو مدين مستعينا بعناية ربه قائلا وهو ليس ذا خبرة في الطريق:

﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ .

ويجد موسى عليه السلام في مدين ملاذا آمنا، في كنف رجل صالح وزوجة طيبة.

وبعد أن قضى الأجل المتفق عليه مع الرجل الصالح حركته العناية الإلهية ليعود إلى مصر، ليكون له فيها شأن يحقق الوعد الإلهي لأمه وللمستضعفين من قومه.

وفي الطريق نحو مصر تتنزل عليه الرسالة ليعود إلى أمه وقد تحقق:

﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ .

ليس هو فحسب بل وأخوه هارون مرسل معه. وقد تسلح بآيات حسية: العصا واليد، وتحصن من كيد فرعون ومن كونه مطلوبا في مصر بتهمة القتل بوعد الله تعالى:

﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ .

وبالبشارة بالغلبة

﴿بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا﴾.

وتكشف السورة عن العناد البشري في مواجهة الآيات الحسية التي ينسبونها إلى السحر مع أنها دليل نبوة بيّن:

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾.

ولنتدبر كيف عصم الله تعالى نبيه موسى عليه السلام من كيد فرعون وبطشه فلم يأمر به أن يسجن أو يقتل، بل عامله معاملة الند فاستجاب لطلبه في ما فصلته سور أخرى من: جمع السحرة، وحشد الناس لبيان الحق من الباطل. وتختصر هذه السورة الأحداث لنرى تجلي آيات الله بإهلاك فرعون ومن معه بعد أن استعلى وادعى الألوهية واستعان بوزيره هامان ليبني له صرحا يطلع به إلى إله موسى كما زعم، فأخذه الله تعالى هو وجنوده في اليم، وبين مصيرهم في الدنيا والآخرة.

وتتجلى آيات القدرة الإلهية في مسار الأحداث التي عرضتها هذه السورة ويتحقق الوعد الذي بدئت به.

ومن ﴿ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ التي تتجلى في هذه السورة ما أشار إليه قوله تعالى من معلومات لم يكن الرسول ﷺ على علم بها، ولذلك هي دليل من أدلة نبوته:

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ...﴾.

وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾.

وتذكر السورة تمحّل الكافرين في طلب الآيات الحسية وكيف أنهم كفروا بها من قبل وسيكفرون من بعد، ولذلك كانت الآية التي أوتيها رسولنا ﷺ وحيا ربانيا معجزا وذلك يتجلى في قوله تعالى:

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ (٤٨) قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

ومن ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ التي تجلت في هذه السورة هذا الحرم الآمن الذي يتخطف الناس من حوله وأهله آمنون فيه (الآية ٥٧).

وقبل نهاية السورة إشارات إلى آيات كونية تتجلى في الليل والنهار المتعاقبين اللذين لم يجعل أحدهما سرمدا (الآيتان ٧١ و٧٢)، ثم تتجلى آية من آيات الله تعالى بخسف قارون وماله الذي استكبر به واحتجب به عن المنعم سبحانه.

وفي نهاية السورة وعد إلهي تحقق لرسوله محمد ﷺ كما تحققت الوعود من قبل لأم موسى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ﴾ وكذلك كان فقد عاد عليه الصلاة والسلام إلى مكة فاتحا بعد أن أخرج منها مهاجرا.

وبذلك تجلت آيات الكتاب في هذه السورة في التاريخ الماضي وفي آيات كونية وفي أمر عاشه رسول الله ﷺ.

﴿ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾

في سورة لقمان

بدئت هذه السورة بقوله تعالى: ﴿ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾ وورود وصف الحكمة في مطلع هذه السورة مناسب لورود وصية لقمان فيها الذي قال عنه ربنا سبحانه في هذه السورة:

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ ﴾.

ومن الآيات التي تحدثت عنها السورة: خلق السماء بغير عمد مرئية، والجبال التي هي مثبتة للأرض تجعلها راسية لا تميد، وبث الدواب في الأرض، وإنزال الماء من السماء وما يكون من آثاره من إنبات الأزواج الكريمة، كل هذه الآيات حشدت في آية واحدة ترى من خلالها آفاق السماء وجنبات الأرض، وشاهق الجبال، ودواب الأرض، وتحلق مع عنان السماء، وتتجلى لك كل نباتات الأرض، وكل منها آية بل فيها آيات. ولنقرأ النص القرآني الكريم:

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ﴾.

ويأتي التعقيب على هذا الحشد من الآيات الربانية التي يشار إليها باسم الإشارة ﴿ تِلۡكَ﴾ في مطلع السورة، يأتي التعقيب بقول الله تعالى في تحد

للكافرين المعاندين:

﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ .

وبعد جرعة الحكمة المتجلية في وصية لقمان لابنه تأتي إشارة أخرى إلى آيات الله تعالى المسخرة للإنسان، والإشارة هنا تأتي مجملة تشمل النعم الظاهرة والباطنة التي منّ الله تعالى بها على الإنسان وقابلها الكافرون بالجحود والجدال بالباطل لا بالشكر والعرفان، قال الله تعالى في أسلوب يلفت العقول والأنظار إلى تلك الآيات التي اعتاد عليها الإنسان ولم يتنبه إليها:

﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾ .

وتأتي آية أخرى لتلفت الأنظار إلى حقيقة مهمة هي أن الأشياء لا بد لها من مالك، هذا ما هو مشاهد في الحياة، فمن يملك السماوات والأرض؟ ويأتي الجواب أن الله هو مالكهما، ولم يتصد أحد غيره ليزعم مشاركة الله تعالى في ملكهما، ثم تتجلى لنا آيات الله تعالى في صورة مذهلة يعجز العقل البشري عن الإحاطة بها إلا أن يكون له من الله تعالى مدد وإلا أن يمضي مع تفاصيل الصورة رويدا رويدا يتملى إبداعها ودقائقها حين تتحول الأشجار إلى أقلام والبحار إلى مداد ويتضاعف ما فيها سبعة أضعاف، وتمضي الأقلام لتكتب ولنا أن نتصور كم من الأيدي تحتاج الكتابة وهي تنغمس في البحر ثم نجدها تعجز عن أن تحيط بعد ذلك كله بكلمات الله، ثم يأتي القول الذي

يجعل الإنسان ذاهلا وهو يرى الخلق كلهم من الأحياء يتجلون في شخصية واحدة يجري عليها الإحياء والإماتة والبعث، ولنقرأ بتدبر وحسن تصور:

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٦) وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٧) مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾.

ثم بعد هذه الجولة المذهلة يأتي لفت الأنظار إلى آيات الله تعالى في الليل والنهار والشمس والقمر وهي آيات قريبة من الإنسان رتيبة تحتاج إلى التنبيه إليها لشق حجاب الغفلة عن أعين الناس تجاهها:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

وبعد هذا يأتي لفت النظر بأسلوب: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾، إلى سير الفلك في البحر الذي سخره الله تعالى للإنسان ويصرح النص القرآني بأن ما يعرض أمامنا آيات يرينا الله تعالى إياها، ويقدم لنا مشهدا للبشر في البحر في موقف ضعف ولجوء إلى الله تعالى يظهر تناقض غير المؤمن في مسار حياته، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣١) وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾.

ويأتي ختام السورة ليقدم عددا من آيات الله تعالى التي تفرد بها ولا يشاركه فيها أحد وهي آيات تتجلى عيانا للإنسان:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ﴾ .

ولنقرأ بعد أن نختم السورة مطلعها من جديد لنستعيد آيات الله المتجلية فيها.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ﴾

في سورة النمل

لفت نظري أن مطلع سورة النمل جاء بقول الله تعالى:

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ .

ومطلع سورة الحجر:

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ .

وهي المرة الوحيدة التي يأتي فيها مطلع سورة بذكر (آيات القرآن)، وهذا يشير إلى حالين للتنزيل الرباني: **الأول:** أنه (قرآن) يتلى وتتردد به الألسنة، حاله في الأرض كما هو حاله في السماء، ففي الأرض له حفاظ كما له في السماء حفاظ، وكتاب مسطور تقرؤه العيون، وهؤلاء الحفاظ يقرؤونه عن ظهر قلب وقراء يتلونه من الكتاب. وفي السماء هو كذلك مقروء مكتوب، ويجمع ذلك ويبينه قوله تعالى:

﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الواقعة: ٧٧ – ٨٠].

في سورة النمل كما في السور التي بدأ مطلعها بالإشارة إلى ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ بيان لعدد من آيات الله تعالى التي هي تحت الإدراك بوسائله

المتعددة، أو هي من الماضي الغابر أو المستقبل القادم، وذلك تنبيها للناس إلى آيات ربهم الدالة عليه ليكونوا له من الذاكرين ولدلائل قدرته وعظمته وحكمته من المدركين. ووصف الكتاب بأنه ﴿مُّبِينٍ﴾ في هذه السورة لأنه يقص على الناس من الأخبار والآيات التي تعلمهم ما لم يعرفوه من قبل كما تبين لهم الجديد من دلائل القدرة والحكمة الإلهية.

في سورة النمل تذكير بآيات الله تعالى التي أجراها على يد موسى عليه السلام وما حل بفرعون وقومه من العذاب، كما فيها بيان لآيات الله التي تجلت لداود وسليمان عليهما السلام، وإن كان التفصيل لما أوتيه سليمان ولكن التدبر يربط بين بعض ما أوتيه النبيان الكريمان: فإذا كان سليمان عليه السلام قد علمه الله تعالى منطق الطير فأبوه داود عليه السلام كانت الطيور من قبل تسبح معه ومع الجبال بالعشي والإشراق.

ونطل من خلال هذه السورة على بعض العوالم القريبة منا من المخلوقات فنسمع تحذير النملة لبنات جنسها وإدراك سليمان عليه السلام لذلك، ونطل على مشهد من مشاهد إدراك سليمان عليه السلام لمنطق الطير من خلال قصة الهدهد مع سبأ. ولعل ذلك يكشف لنا عن أن هذه الطيور والكائنات التي تساكننا في كل مكان ليست من العجماوات التي لا تعي بل لعلها من الشهود علينا في ما نفعله ونحن غافلون عن الرقباء الذين لا يغفلون، والله أعلم.

ونطل من خلال هذه السورة على مصارع قومين من الأقوام السابقة: ثمود وقوم لوط، والحديث عن قوم ثمود يكشف عن (المؤامرة) التي حاكها

أعداء الله تجاه نبي الله صالح، وزينها الشيطان لهم ولنقرأ ولنعجب من قولهم:

﴿ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾.

أو ليست هي المؤامرة نفسها التي أرادتها قريش حين أرادت أن يتفرق دم النبي ﷺ بين القبائل؟

أو ليست هي المؤامرة المستمرة من أعداء الله على كل من يدعو إلى الله، كل ذلك وهم يظنون أنفسهم على خير كما قال تعالى في مطلع السورة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾.

والحديث عن قوم لوط تنبيه إلى الفاحشة التي أهلكوا بسببها وهي من الفواحش التي توارثتها البشرية عنهم.

وتمضي السورة تلح بالسؤال تلو السؤال وهي تستعرض الآيات الربانية الدالة عليه ومع السؤال عن تلك الآيات يأتي سؤال آخر: ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾.

ولنقف على هذه الأسئلة التي في كل منها بيان لجوانب بينة من آيات الله التي يقف الخلق أمامها عاجزين مسلمين أنها ليست منهم بل هي من الله سبحانه وتعالى: يأتي السؤال عن خلق السماوات والأرض وإنزال الماء وإنبات الحدائق الجميلة:

﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾

ويأتي السؤال عن الأرض دار إقامة الإنسان التي جعلها الله تعالى تبدو للإنسان ساكنة يعيش عليها مطمئنا وهي تدور في الفضاء ولا يحس بدورانها، وعن هذه الأنهار التي هي شرايين الحياة في الأرض، وعن الجبال التي تجعل الأرض راسية لا تميد بأهلها، وعن هذا الفصل بين الماء الحلو والماء المالح، وكل ذلك آيات دالة على القدرة والحكمة الربانية:

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ويأتي السؤال القريب من الإنسان الذي يجد نفسه في أزمات ولا يجد مغيثا إلا الله فيتوجه إليه بدعاء المضطر فيستجيب له ومع مشهد الاضطرار يظهر مشهد تعاقب الأجيال على الأرض:

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾.

ويأتي مشهد آخر من حياة الإنسان تتجلى فيه قدرة الله تعالى ويحس الإنسان فيه أن له ربا، ذلك هو مشهد الإحساس بالتيه ثم هداية الله تعالى للناس إلى غاياتهم في الأرض ومشهد الرياح الآتية لتبشر بالغيث رحمة من الله تعالى:

﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ويبدو لنا مشهد تجدد الخلق

على الأرض بدءا وإعادة، ولكل مخلوق رزقه المقسوم ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ .

وتمضي السورة تعرض آيات الله إجمالا في مصارع المجرمين في الأرض، وفي بيان القرآن لأكثر ما اختلف فيه بنو إسرائيل. وتشير إلى آية الدابة في آخر الزمان، كما تلفت النظر إلى آية الليل والنهار والجبال التي تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب وتختم بقوله تعالى:

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ .


دعوات للسير
في الأرض

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾

التفكر والتدبر وسيلة من وسائل معرفة الله تعالى من خلال تجليات أسمائه الحسنى في الوجود، والتدبر والتفكر هو ثمرة تشغيل الحواس وأهمها البصر؛ للنظر في كل ما حول الإنسان من الأشياء الدالة على الله تعالى.

ومما يلفت النظر في القرآن الكريم الدعوات المتكررة للناس وللمؤمنين للنظر والاعتبار، وقد ورد الأمر بالنظر في عدد من المواضع في القرآن الكريم مقرونا بالأمر بالسير في الأرض في أسلوب أمر مباشر بلفظة سيروا، وجاء بطريق الاستفهام المنفي بصيغة: أفلم يسيروا و: أولم يسيروا، وهذه الدعوة وهذا الأمر مما يمكن تسميته بأنه دعوة إلى السياحة الإسلامية، وهي سياحة منضبطة هادفة ليست للمتعة الفردية فحسب، ولا لقضاء الوقت بعيدا عن العمل ومتاعبه فقط، بل هي سياحة تفكرْ وتدبرْ وعبادة لله تعالى واستكشاف لتجليات قدرته وحكمته وعزته.

ومما نلحظه أن أكثر المواضع التي وردت فيها الدعوة إلى السير في الأرض والنظر توجهت إلى الدعوة إلى النظر في عاقبة من كان قبلنا على الأرض من الأقوام المكذبين، والاعتبار بما حل بهم حتى لا نغتر مثلهم أو نكذب كتكذيبهم فيصيبنا ما أصابهم.

ولنقف على الآيات التي تضمنت الدعوة إلى السير والنظر بصيغة الاستفهام المنفي.

في سورة يوسف:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ١٠٩].

إنها دعوة للناس إلى زيارة آثار الأمم البائدة التي بقيت من بعدهم، وفي الآية تنبيه إلى حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة حتى لا يغتر الناس بالدنيا.

في سورة الحج في الآية ٤٦ دعوة إلى السير في الأرض بقلوب واعية وحواس متفتحة تدرك حقيقة ما تراه في سيرها مع ربط ذلك السير بما حدث مع الأمم السابقة من عاقبة.

وتجيب الآية عن سؤال يتعلق بعدم انتفاع الكفار بما يرون من آيات الله في سيرهم في الأرض والجواب هو عمى القلوب الذي يبطل عمل الحواس:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وتتكرر الدعوة ولكن مع تنبيه إلى أمر مختلف في سورة الروم في الآية التاسعة:

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

ففي هذه الآية تنبيه إلى عاقبة السابقين المكذبين ولكن في الآية إشارة

كذلك إلى ما كانوا يتمتعون به من قوة واستثمار لخيرات الأرض، وعمارة لها بالبنيان، ولتقوم عليهم الحجة وتتضح لهم السبيل أرسل الله تعالى لهم الرسل بالأدلة الواضحة والمعجزات البينة فلم يستجيبوا وغرتهم الدنيا وحجبهم ما لديهم من قوة فحق عليهم القول بالعذاب والهلاك وهم الذين استدعوا هذا المصير بظلمهم لأنفسهم لا بظلم الله تعالى لهم.

وفي سورة فاطر في (الآية ٤٤) دعوة إلى النظر في عاقبة الذين خلوا من قبل من الهالكين المكذبين ولكن مع إشارة إلى ما كانوا عليه من قوة تفوق قوة من جاء بعدهم من سكان الأرض، ويضاف إلى ذلك التنبيه إلى قوة الله تعالى الذي لا تعجزه قوة أحد من خلقه سواء أكانوا في الأرض أم في السماء مع التنبيه إلى صفتين من صفات الله تعالى: العلم والقدرة، وهما صفتان متصلتان بالموقف، فهو العليم بحال عباده وما يستحقون من تجلياته، وهو القدير على ذلك، ومصائر هؤلاء الأقوام شاهدة على ذلك.

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾.

وفي سورة غافر في (الآيتين ٢٢و٢١) دعوة إلى السير في الأرض والنظر في عاقبة السابقين، ويتكرر التنبيه على تفوقهم في القوة على المعاصرين، حتى لا تكون قوتهم سببا لغرورهم كما كانت لمن قبلهم فيصيبهم ما أصابهم، وما خلفوه من الآثار الباقية دليل حي على ما بلغوا من قوة، ولكن قوتهم لم تغن عنهم شيئا حين اقترفوا الذنوب فكانت سبب إهلاكهم، ولم يكن لهم واق من

عذاب الله: لا من قوتهم ولا من قوة غيرهم في الأرض. وتعليل ما حل بهم من العذاب مذكور فقد كفروا برسل الله الذين جاؤوهم بالمعجزات البينة.

وتختم الآية بصفتين من صفات الله تناسبان الموقف: القوة وشدة العقاب، وفي هذا تهديد لمن يكذب من بعد كما كذب السابقون، ومن أهلك من سبق بسبب كفره يهلك من كفر في كل زمان:

﴿ ۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾.

وفي (الآيات ٨٢ - ٨٥) من السورة نفسها نجد الدعوة تتكرر للسير في الأرض والنظر في عاقبة السابقين مع الإشارة إلى قوتهم وآثارهم الباقية والحديث عن عجزهم أمام قوة الله حين نزل بهم العذاب بعد أن كذبوا رسل الله واغتروا بالعلم الذي كان لديهم بدلا من أن يكون العلم بوابة إيمان لديهم وفي هذا الموقف نجد تفصيلا لبعض حال المعذبين حين رأوا العذاب ورأوا ضعف قوتهم أمام قوة ربهم فآمنوا حين لا ينفع الإيمان بعد فوات الوقت، وفي هذا البيان المفصل للعذاب وسببه وحال المعذبين حين أيقنوا بالهلاك إنذار لمن يسلك سبيلهم من بعد:

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا

جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾.

وفي الآية العاشرة من سورة محمد ﷺ، نجد إيجازا في الحديث عن السابقين الذين أمر القرآن بالسير في الأرض والنظر في مصيرهم مع التهديد المباشر: ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا﴾.

﴿۞ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا﴾.

النظر في هذه المواضع المتعددة في القرآن الكريم التي تحض بأسلوب الاستفهام المنفي الذي يحمل العجب ممن لا يسير في الأرض ولا ينظر في عاقبة الكافرين من السابقين دليل بيّن على أهمية هذا السير في الأرض وزيارة الآثار للتفكر والاعتبار وهو أمر قصّر فيه كثيرٌ منا كأن لم يأمر به الله تعالى.

سيروا في الأرض

لم تقتصر الدعوة القرآنية إلى السير في الأرض على ما يمكن أن نسميه الاستفهام التحريضي التنبيهي بصيغة: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ﴾ و﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ﴾ بل جاءت بالأمر المباشر بصيغة: ﴿سِيرُواْ﴾، وقد جاء الأمر في هذا المجال بهذه الصيغة ست مرات، خمس منها للنظر في عاقبة المكذبين والمجرمين ومن كان من قبل من المشركين، وواحدة للنظر والتبصر في كيفية بدء الخلق.

والأمر بالسير في الأرض يعني زيارة آثار الغابرين والنظر في ما حل بديارهم من الخراب، ومعرفة وسيلة العذاب التي حلت بهم، ودراسة سيرتهم وموقفهم من أنبيائهم الذين جاؤوهم، والنظر في منهج حياتهم ونظرتهم إلى أنفسهم وإلى الدنيا التي عمروها حينا من الدهر. إنها دعوة إلى الوقوف على الآثار وتسجيل التاريخ من خلاله وأخذ العبرة من عاقبتهم.

هذه الدعوة الربانية للسير والنظر والتفكر والتدبر مبنية على ما وهب الله تعالى الإنسان من القدرات والملكات التي تمكنه من الإدراك والاعتبار ما لم تطمس وسائل الإدراك لديه.

جاء في الآية السابعة والثلاثين بعد المئة من سورة آل عمران: ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾.

والسنن التي تلفت الآية الكريمة إليها هي إما ما كان من الأمم السابقة من مسالك في مواجهة الأنبياء، أو ما كان من سنن الله تعالى في إرسال

الرسل، وذلك أمر قد مضى وبقيت آثار عاقبة المكذبين الذين نزل بهم العذاب.

وخطاب السير والنظر موجه ابتداء إلى المؤمنين ليزدادوا بما يرونه من مصائر السابقين إيمانا بقدرة الله تعالى التي تتجلى في آثار السابقين. ولا تخلو بقعة في الأرض من آثار السابقين فالعبرة ممتدة على امتداد الوجود الإنساني لمن أراد أن يعتبر.

وفي سورة الأنعام نجد الأمر بالسير يأتي عقب الحديث عن موقف الأمم السابقة من رسلها فيأتي هذا الأمر لبث الطمأنينة في نفوس المؤمنين بأن العاقبة لهم والهلاك على الكافرين، جاء في الآية العاشرة:

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

ثم جاء عقب ذلك: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾.

ونجد في الآية الأمر ﴿قُلْ﴾ موجها من الله تعالى لرسوله ﷺ، والأمر ﴿سِيرُوا۟﴾ فهل هو موجه من الرسول ﷺ إلى الكافرين ليتعظوا بمصير أسلافهم فيؤمنوا حتى لا يصيبهم ما أصاب أولئك المكذبين؟ أم هو موجه إلى المؤمنين الذين أصابهم البلاء من الكافرين المكذبين ليطمئنوا أن الله تعالى ناصرهم ومهلك أعدائهم؟

وهناك أمر آخر ففي سورة آل عمران جاء حرف الفاء عقب سيروا وهنا جاء حرف ثم، فهل هو أمر بالسير القريب والبعيد للنظر في عاقبة المكذبين في أنحاء الأرض المختلفة لا في مكان قريب فحسب؟

وفي سورة النحل بيان لمواقف الأمم من رسلها، ونحن هنا أمام فريقين: مؤمنين هداهم الله تعالى إلى الحق فآمنوا بالرسل ومنهم من كذب ولم يؤمن فحقت عليهم الضلالة ونزل بهم العذاب، فالسير في الأرض لتبين آثار المكذبين الماثلة في ديارهم الشاهدة على مصيرهم، ولعل مما يجب التنبه إليه في هذا المجال أن آثار الباقين من السابقين هي آثار المكذبين، وهي آثار تجلت فيها آيات الله بالإهلاك الذي يتبينه من يسير متفكرا بنور القرآن الكريم. قال تعالى في الآية السادسة والثلاثين من سورة النحل:

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾.

لقد تشابهت مواقف الكافرين عبر العصور ومع تتابع الأنبياء بالتكذيب بالرسالة والشك في البعث بعد الموت، وهذا ما تحدثنا عنه الآيتان السابعة والستون والثامنة والستون من سورة النمل ويأتي عقب ذلك في الآية التاسعة والستين قوله تعالى:

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

ونحن هنا أمام وصف جديد للكافرين هو وصفهم بالمجرمين يضاف إلى

وصفهم بالمكذبين الذي ورد من قبل في حقهم، والخطاب في هذه الآية موجه إلى الكافرين لينظروا ما حل بأسلافهم الذين ارتكبوا أكبر جريمة وهي التكذيب بالرسالة وإنكار البعث.

وفي سورة الروم أمر بالسير في الأرض ولكنه جاء بعد لفت النظر إلى أثر الكفر في إفساد الأرض ففي الآية الحادية والأربعين جاء قوله تعالى:

﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ .

وهي آية تصف آثارا معنوية تنعكس ماديا على الأرض بسبب الكفر وتشير إلى مذكرات ربانية للناس ببعض ما يصيبهم من البلاء لعلهم يدركون ضعفهم فيؤمنوا بربهم ثم يأتي بعد ذلك الأمر بالسير وهو هنا أمر عام يشمل المؤمنين وغيرهم فالمؤمن يزداد يقينا والكافر لعله يعتبر:

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴾ .

والإشارة في هذه الآية إلى غلبة الشرك على من سبق من الأمم وعدم استجابتهم للرسل دعاة التوحيد والهدى.

موضع واحد من مواضع الدعوة إلى السير في الأرض لم يربط هذا السير بالنظر في عواقب الأمم السابقة بل فيه دعوة إلى ما يمكن أن نسميها السياحة العلمية التي تبحث في آيات الله المتجلية في أشكال الخلق للوصول إلى اليقين العلمي في وجود الكائنات من خلال النظر والبحث الدقيق، هذا اليقين الذي

يقود الباحث إلى الإيمان بالخالق الذي يبدئ الخلق ويعيده، جاء ذلك بعد الحديث عن تكذيب المعاصرين للرسول ﷺ وبيان أن أمما من قبلهم قد كذبت. (الآية ١٨ من سورة العنكبوت)، فمن شاء اليقين فليبحث في آيات الخلق المبثوث في الأرض، ونحن في سورة العنكبوت أمام أسلوبين في الدعوة إلى هذا الأمر، الأول: الاستفهام التحريضي والأمر المباشر، فالأول جاء في قوله تعالى في الآية (١٩)

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

فنحن هنا لسنا أمام فلتة عارضة بل خلق متكرر في البدء والإعادة مما يدل على خالق حكيم مدبر، ولم يكتف القرآن الكريم بالاستفهام بل جاء بالأمر:

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

والدعوة هنا فيها تحريض للمؤمنين والكافرين على البحث العلمي القائم على الملاحظة التي تؤدي إلى استكشاف قوانين الخلق ليكون ذلك البحث بوابة إيمان بالبعث بعد اكتشاف تجليات القدرة الإلهية في الأرض التي تتجلى في البدء والإعادة المتكررين، أي بنماذج الحياة والموت التي يشاهدها من ينظر ويتفكر.

دعوات متكررة إلى النظر

تكررت في القرآن الكريم الدعوة مرة تلو الأخرى وفي مواطن شتى، إلى النظر الذي يعني بقاء البصر مجلوا من كل غشاوة تحجبه عما حوله من آيات الله التي أنى توجه الإنسان وجدها تلقاء حواسه تدعوه إلى ربه، وتذكره بحقيقة الدنيا؛ ليكون واعيا بما خلق له،بعيدا عن الغفلة، لا يشغله الهوى عن الهدى، ولا الشهوات واللذات عن الطاعات، ولا يلهيه عن ربه شيء من المخلوقات.

وقد مرت بنا الدعوة إلى النظر في عاقبة من سبقنا على هذه الأرض لنعتبر من حالهم ومآلهم، فقد شغلتهم الدنيا ورضوا بها واطمأنوا إليها وكذبوا بالله ورسله فلم ينفعهم ما كانوا فيه من علم ومال وبناء واستكبار فأهلكهم الله تعالى وأبقى آثارهم عبرة لمن بعدهم.وكذلك الدعوة إلى السير في الأرض والنظر في تجليات القدرة الربانية في بدء الخلق والوقوف على السنن الربانية في بدئه وإعادته.

ولكن الدعوة إلى النظر وجلاء الحواس وتنبه العقل تبقى تتردد أصداؤها في القرآن الكريم، وها نحن في سورة الأنعام في الآية التاسعة والتسعين أمام مشهد خلاب تتجلى فيه آيات القدرة الربانية في نزول الماء من السماء وما له من آثار في إحياء النباتات بشتى أنواعها في خضرة مليئة بالحياة يجود الرب الكريم من خلالها على عباده بأنواع الحبوب التي تقوم بها حياة الإنسان، أليس هذا المنظر الربيعي الصيفي مستحقا للنظر والتأمل والتدبر لا بعين الجائع الذي يبحث عن طعام، الخائف من أيام مقبلة لا يجد فيها ما يأكل

فيخزنه، ولا بعين صاحب المال الذي يرى في هذا المشهد زيادة رصيد في أمواله بما يكون بعد الحصاد، بل بعين المؤمن الذي يرى فلا يقف عند ظاهر المشهد بل ينقل نظره إلى ما وراءه وما بعده فيشهد نعمة ربه فيشكر، ويدرك حقيقة الدنيا وجمالها الظاهري وسرعة انقضائها فلا يغفل عن الآخرة التي تنقله أيامه نحوها.

ومن مشهد الحقول الفسيحة الممتدة المليئة بالخضرة والنضرة والسنابل وأنواع الحبوب ينتقل النظر إلى تجل آخر من تجليات القدرة الربانية في البساتين العامرة بأنواع الأشجار التي تخرج بإذن الله ألوان الثمرات هي نتيجة الماء النازل من السماء الذي يبث به الخالق الحكيم الحياة وتدور من وراء العيون أجهزة دقيقة، وعملية عجيبة تصنع من التراب ألوانا لا تحصى من الثمرات التي تلبي حاجة الإنسان في كل شؤونه، وها هو المشهد يبرز لنا صورة النخل الذي تتدلى قنوانه دانية في مشهد بديع ينطق لسان الذاكر بتسبيح ربه وحمده، وينطق العقل بشهادة اليقين بالله الذي أبدع هذه الشجرة بكل ما فيها من مظاهر الإبداع، وتتجلى لك في المشهد أنواع الأعناب في اختلاف ألوانها وأشكالها وطعومها، ويتجلى لك الرمان في مراحل نموه من زهر بديع بهي المنظر إلى ثمرات متراكبة الحب تتجلى فيها آيات الإعجاز، ويلفت المشهد العين البصيرة والعقل الواعي إلى الاشتباه الظاهري في بعض الثمرات واختلافها في الطعم بل في اختلافها في ما وراء القشرة من لون كذلك، بعد إيراد هذا المشهد البديع بكل جزئياته تأتي الدعوة إلى النظر إلى الثمر في مراحله المختلفة إلى أن يصل مرحلة النضج لتتجلى لمن ينظر ويتفكر آيات

يدركها من آمن بالله ولم تطمس الشهوات والشبهات حواسه ولا عقله. ولنقرأ بتدبر نستحضر معه مشاهد ما تدل عليه الآية الكريمة:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ **ٱنظُرُوٓا۟** إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

ومن هذا المشهد المتعدد الجوانب، البديع التفاصيل المحدد المعالم تنقلنا الآية الواحدة بعد المئة إلى مشهد آخر تدعونا إلى النظر فيه، ولكنه مشهد أوسع وأفسح، مشهد يحتاج الإنسان لإدراك تفصيلاته إلى أعمار أجيال تتراكم مشاهداتها، وتتكامل معلوماتها لتكوّن تراثا إنسانيا يطل منه المؤمن لا غيره على آيات الإبداع، أما غير المؤمن فتحجبه تلك الآيات بقوانينها وجزئياتها عن النفوذ منها إلى قراءة تجليات خالقها ومبدعها: الله رب العالمين، ولنطل على المشهد الفسيح الممتد من الأرض إلى السماء، مما يدرك بالعين المجردة إلى ما يحتاج إلى المنظار المقرب للبعيد والمجهر المكبر للصغير الدقيق:

﴿ قُلِ **ٱنظُرُوا۟** مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس: ١٠١]

وإذا كانت الدعوة في ما سبق جاءت بصيغة ﴿ٱنظُرُوا۟ ﴾ فإنها جاءت في موضعين بصيغة ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ﴾، وفي المواضع كلها دعوة النظر موجهة إلى

الإنسان مؤمنه وكافره، ولكن في الضمير خفاء وفي الاسم الظاهر بيانا أوضح وفيه تذكير للإنسان بحقيقته المجردة عما اكتسب من المادة التي يغتر بها ويطغى فينسى إنسانيته، و(يتفرعن) أو (يتنمرد) أو (يتقورن)، الدعوة إلى الإنسان للنظر جاءت في سورة عبس لينظر في طعامه الذي تقوم به حياته ويستمتع بألوانه وأشكاله وطعومه وتنسيه شهوته وجوعه الوقوف على حقيقته وشكر المنعم به عليه. إن الآيات تمضي بالإنسان مع طعامه خطوة خطوة، من صب الماء صبا، وهذه تحتاج إلى وقفات من المختصين، ومثلها في شق الأرض شقا، وإذا كان الإنسان يدرك الأولى في المطر فإنه في غفلة عن الثانية وتفصيلاتها، وتمضي الآية تفصل أنواع ما يخرج من الأرض من الطعام للإنسان ولما سخر الله تعالى له من الأنعام، كل ذلك يحشد له في مشهد متراص التفاصيل لينظر إليه نظر المتفكر المعتبر وهو في الحقول والبساتين، وكذلك وهو جالس على مائدته، ليذكر ربه ولا ينساه، وليشكره ولا يكفره:

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [عبس: ٢٤ – ٣٢].

وتأتي الدعوة الختامية للإنسان في سورة الطارق لينظر في مادة خلقته وفي هذه الدعوة تجليات مختلفة فهي تدعو الإنسان الذي يرى نفسه وقد كبر وصار شيئا مذكورا إلى عدم نسيان بداياته وتطورات خلقه التي لم يكن له فيها يد بل هي من إبداع الخالق الحكيم ويجعل من الحديث عن أصل خلقه بوابة

للحديث عن البعث بعد الموت، ويا عجبا لمن يصدق أنه خلق من ماء دافق كيف يغفل أو ينكر قدرة من خلقه أول مرة على بعثه بعد الموت:

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق: ٥ - ٩].


ألم تر وأخواتها

﴿أَلَمْ تَرَ﴾؟

دعوات إلى النظر والتدبر

الإنسان هو الكائن المتميز على هذه الأرض بل في هذا الكون، ميزه الله تعالى بالقدرة على الإدراك، وزوده بالأدوات المساعدة على ذلك، فأعطاه الحواس التي هي نافذته على الوجود، وأعطاه وسيلة الربط والفهم التي سماها القرآن الكريم (الفؤاد واللب والقلب) ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

وقوله عز وجل: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

هذا الإنسان المميز المكرم، يشارك ما حوله من الكائنات في صفات، ولكنها مسخرة له، تلبي حاجاته، وتيسر له أمور دنياه، بإرادته وقدرته المباشرة التي منحه الله تعالى إياها بالتصرف، كالتعامل مع الحيوانات والنباتات وتنميتها والانتفاع بها، وبصورة غير مباشرة في ما ليس له فيه يد في تصرفه، كحاله مع الليل والنهار والشمس والنجوم والكواكب، والريح والمطر وغير

ذلك، ولكن هذا الإنسان الذي سخر له كل ما حوله قد ينسى تميزه، ويغفل عن منزلته، ويسهو عن غاية وجوده، فتراه في تلك الحالة وقد نزل عن المرتبة العليا ﴿أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٍ﴾ إلى درك ﴿أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ ويصدق عليه عند ذلك وصف: كالأنعام بل هم أضل، ومنه قوله تعالى:

﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾[الأعراف: ١٧٩].

وسبب نزول الإنسان إلى هذا الدرك هو تعطيل وسائل الإدراك: القلوب والأعين والآذان، ووقوعه بسبب ذلك في أسر الغفلة وقيد الشهوة، وسجن اللحظة، مما يجعله ينسى نفسه بعد أن نسي ربه، ووقع في فخ عدوه الذي لا يغفل عنه ليرديه ويسوقه بالغفلة والشهوة إلى درب الشهوات الموصل إلى نار جهنم. من أجل ذلك ولجلاء غبش الغفلة عن حواس الإنسان وقلبه، وليظل يقظا متنبها مدركا واعيا تأتيه الدعوات المتكررة من ربه سبحانه في مواضع متعددة من القرآن الكريم وبصيغ مختلفة تجعله أنى كان وفي كل حال ناظرا إلى آيات ربه متفكرا في أحواله وأحوال من سبقه من الناس على الأرض التي سيتركها ويمضي كما مضوا، يتجلى له الماضي كأنه حاضر مشهود، والغيب كأنه رأي عين، وتتجلى له النماذج البشرية عبر العصور، وتتراءى له الآيات حتى لا تبقى له حجة أن يقول ليس لدي دليل أو لم يأتني برهان، فوسائل التنبيه وأدوات اليقظة التي تشق حجب الغفلة بين يديه.

وقد رأينا من قبل دعوات القرآن الكريم المتكررة إلى السير في الأرض والنظر في عاقبة الغافلين ممن كذبوا رسل الله، ورأينا الدعوة إلى التفكر في آيات الله في الخلق.

ونفتح بابا جديدا من أبواب التفكر والتدبر في القرآن أداتنا لفتحه صيغة ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ هذا الباب الذي نطل من خلاله على نماذج من البشر في الماضي والحاضر، وعلى آيات كونية نعيش معها بل تعيش معنا، وعلى نعم ربانية نغفل عن آثارها، وعلى كيفية تجليات الغضب الإلهي على من يغفل عنه ويعصي أمره، ولنا بإذن الله مع هذا الباب من أبواب التفكر وقفات.

﴿أَلَمۡ تَرَ﴾..

مواقف من الموت؟

نمضي مع دعوة القرآن الكريم لنا إلى الرؤية بالأسلوب التحريضي: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ الذي يحمل التعليم والتنبيه حينا، والتعجب حينا آخر، والتهديد في موضع ثالث.

نمضي مع جانب من تلك الدعوة يتضمن التنبيه إلى نماذج من البشر تجلت فيهم صفات ذميمة غير مرضية من رب العالمين، والمطلوب من المسلم اجتناب ما اتصف به أولئك المذمومون، بل إن القرآن الكريم ليعرض علينا الحالة ويستصدر منا بالاستفهام الوارد ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ الحكم على تلك المواقف من تلك النماذج.

والنموذج الأول هو: نموذج الخائف من الموت، هذا الموت المقدر الذي لا يحمي منه فرار أو اعتصام بأي قوة، ونجد من مواقف هذا النموذج إشارة إلى موقف تاريخي لا يقص علينا القرآن الكريم تفصيلا عنه، ولا يخبرنا أين كان ولا متى كان، لكنه يقول لنا إن كان فيكم من يخاف من الموت فخوفه لن ينجيه منه، وللخائفين من الموت أسلاف من البشر يحدثنا عنهم القرآن الكريم هكذا في الآية ٢٤٣ من سورة البقرة:

﴿ ۞ أَلَمۡ تَـرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمۡ وَهُمۡ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ فَقَالَ لَهُمُ

ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحۡيَـٰهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴾.

وفي أسلوب الحديث عنهم تعجيب من حالهم الذي يتجلى فيه ضعف الإيمان، وينكشف للمتدبر في الموقف أكثر من أمر ليس في حال من تحدثت عنهم الآية بل في شأن نفسه وموقفه من الموت.

ولنقف على بعض ما قاله المفسرون في هذه الآية، قال ابن عطية:

(هذه رؤية القلب بمعنى: ألم تعلم، والكلام عند سيبويه بمعنى: تنبّه إلى أمر الذين، ولا تحتاج هذه الرؤية إلى مفعولين، وقصة هؤلاء فيما قال الضحاك هي أنهم قوم من بني إسرائيل أمروا بالجهاد، فخافوا الموت بالقتل في الجهاد، فخرجوا من ديارهم فراراً من ذلك، فأماتهم الله ليعرفهم أنه لا ينجيهم من الموت شيء، ثم أحياهم وأمرهم بالجهاد بقوله:﴿ وَقَـٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ .

ولا يخفى ما يتجلى في هذا الموقف من قدرة الله تعالى الذي أحياهم بعد ما أماتهم وتلك خارقة كانت لأمر أراد الله تعالى به أن يظهر قدرته المطلقة ويقيم الحجة على الناس الغافلين.

وشبيه بهذا الموقف ما تحدثنا عنه الآية ٢٤٦ من سورة البقرة: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَـٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَـٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَـٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ

أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

ونقف مع ما قاله ابن عطية في شأن هذه الآية بكلام مختصر مفيد: (هذه الآية خبر عن قوم من بني إسرائيل نالتهم ذلة وغلبة عدو، فطلبوا الإذن في الجهاد وأن يؤمروا به، فلما أمروا كعّ أكثرهم وصبر الأقل، فنصرهم الله، وفي هذا كله مثال للمؤمنين يحذر المكروه منه ويقتدى بالحسن).

والموقف هو الموقف من الموت خوفا وفرارا، ولكن في صورة أكثر تحديدا وبيانا، فنحن أمام ﴿ٱلْمَلَإِ﴾ أي علية القوم من بني إسرائيل وقد طلبوا من نبي لهم أن يبعث لهم ملكا يقاتلون تحت لوائه لاسترداد حقوق ضائعة، فلما استجاب الله تعالى لطلبهم نكصوا على أعقابهم عن القتال وتولوا هاربين منه حذرا من الموت.

ويقدم لنا القرآن الكريم موقفا ثالثا من مواقف الخوف من الموت وهو شبيه بموقف الملأ من بني إسرائيل من القتال، وهذا الموقف كان في عهد الرسول عليه وآله الصلاة والسلام وقد سجلته الآية ٧٧ من سورة النساء:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾.

وأنا أميل إلى قول من ذهب من المفسرين إلى أن هذه الآية نزلت في

منافقين كانوا في حال الرخاء مستوري الحال فلما كتب عليهم القتال انكشفت حقيقتهم.

ووراء هذه النماذج والمواقف نماذج ومواقف أخرى يكشفها لنا القرآن في دعوته لنا بأسلوب: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾..

مواقف من الضلال

ونمضي مع القرآن الكريم وهو يدعونا إلى النظر الذي يثير العجب في نماذج من البشر يستحق موقفهم التدبر والوقوف عنده والعجب منه، يدعونا إلى ذلك بصيغة: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ بما فيها من استفهام منفي يحمل نوعا من التعجب لا يوازيه قول: ﴿انظُرْ﴾ لأن الموقف ليس موقف نظر فحسب، وتتعدد النماذج البشرية المعروضة في مواطن شتى من القرآن الكريم مفتتحة بـ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾، فمنها النموذج الفردي التاريخي، ومنها ما يأتي الحديث عنه بصيغة الجمع متحدثا عن مواقف أناس كانوا في عهد التنزيل، ويجمع النماذج كلها أنها نماذج ضلالة كان يفترض أن تهتدي إلى الحق المبين الذي انكشفت أنواره ولكنها عميت عنه وآثرت الغواية.

حدثنا القرآن الكريم في سورة البقرة في الآية (٢٥٨) عن نموذج واجهه أبو الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة والسلام، هو نموذج الملك الطاغي الذي غره الملك فظن نفسه مالكا على الحقيقة متصرفا في الرعية بالأصالة لا بالاستخلاف ونسي أن الملك لله يؤتيه من يشاء، فجره ذلك إلى ادعاء ما ليس له وما هو فوق طاقته، فها هو إبراهيم عليه الصلاة والسلام يؤدي الرسالة ويبلغ الدعوة لطبقات المجتمع كافة، بلغ أباه وحاج قومه، وها هو مع صاحب السلطة العليا في المجتمع يسعى إلى هدايته، وبدلا من أن يتواضع ذلك الملك

ويبصر الحق ها هو يجادل بالباطل، وإبراهيم عليه الصلاة والسلام يكشف له عن حقيقة ربانية تفرد بها الله تعالى لتكون مفتاح هداية لقلبه يتفكر فيها ويبصر الحق ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ في إشارة إلى ظاهرة الموت التي تصيب الكائنات ومنها ذلك الملك وسلسلة نسبه، ولكنه بدلا من التفكر والتدبر تأخذه العزة بالإثم، ويدفعه الغرور إلى الإغراق في الوهم فيقول باستعلاء يستصغر به نبي الله الذي جاء ليكشف الغشاوة عن قلبه: ﴿أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ﴾، أي غرور أشد من هذا إلا غرور فرعون الذي زعم الربوبية والألوهية واستعلى علوا شديدا؟ وتتجلى حكمة الداعي في مواجهة كبرياء المدعو حين لا يمضي في لجاجة الجدال ولا ينساق إلى الزاوية الحرجة التي ساقه إليها ذلك المجادل بالباطل فينقل الحوار إلى ساحة لا مجال فيها للزعم أو الوهم، ساحة مضيئة بنور الشمس الذي يبدد ظلمات الليل ويكشف حجب الغرور ليقيم الحجة ويبطل الباطل:

﴿قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ﴾.

وأنى له أن يفعل ذلك، فما دام ذلك الملك عاجزا فعليه أن يؤمن بالرب القادر الذي خلق تلك الشمس وجعل لها نظاما لا يتخلف ولا يملك أحد من الخلق أن يزعم التحكم فيه، وقامت الحجة على ذلك المغرور وبدا عاجزا أمام نفسه وأمام من كان حاضرا ذلك المجلس، فبهت ولم يستطع جوابا لكنه لم يؤمن وأصر على الضلالة.

ويحدثنا القرآن الكريم عن مواقف لبعض من عاشوا في عهد رسول الله

ﷺ وكانوا من أهل الكتاب من قبل فعندهم علم بخبر رسول الله محمد ﷺ، فالأصل أن يبادروا إلى الإيمان برسالته، وحين يؤمنون يفترض أن يكون إيمانهم صادقا ينير قلوبهم ويضبط حياتهم، فلا يخفون ما لا يبدون لأن ذلك من النفاق فهم لم يكونوا مؤمنين حقا، بل كان إيمانهم ظاهريا مجاراة لتيار الإيمان الجارف الذي لم يستطيعوا مقاومته فلبسوا رداءه وأخفوا ضلالتهم، وموقف التحاكم إلى ﴿ٱلطَّٰغُوتِ﴾ يكشفهم فلو كانوا مؤمنين حقا لتحاكموا إلى الله ورسوله لا إلى رموز الضلالة من أهل الكتاب في عصر الرسالة وها هو القرآن الكريم يعريهم ويكشف حقيقتهم وحقيقة من سار على منهجهم في الآية ٢٣ من سورة آل عمران:

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ وَهُم مُّعۡرِضُونَ ﴾.

وفي الآية ٦٠ من سورة النساء: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ﴾.

ويكشف القرآن الكريم ذلك التعاضد بين المنافقين وأهل الكتاب الذين جحدوا ما عندهم من الأدلة البينة بصدق نبوة محمد ﷺ، ذلك التعاضد الذي يتجلى في حلف بينهم في حرب المؤمنين ولكن مع كشف خسة المنافقين وتخاذلهم في المواقف الحرجة خوفا على أنفسهم من الفضيحة ومن قوة الإيمان وذلك ما تكشفه الآية ١١ من سورة الحشر:

﴿ ۞ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمۡ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلۡتُمۡ لَنَنصُرَنَّكُمۡ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴾.

ويضعنا القرآن الكريم أمام نموذج آخر من نماذج الضلالة نموذج لم يتلبس بالإيمان ظاهرا ويبطن عداوة تكشفها المواقف بل نموذج من كان عنده اليقين من أهل الكتاب السابقين بصدق نبوة محمد ﷺ ولكن الكبر والحسد كانا حجابا حاجزا بينهم وبين الإيمان فتحولوا من أهل علم بالحق عليهم أن يؤمنوا به ويدعوا إليه، تحولوا إلى أئمة ضلالة يُعرضون عن الحق ويريدون أن يضلوا من آمن من الناس به، وذلك ما تكشفه لنا الآية ٤٤ من سورة النساء:

﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يَشۡتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴾.

وكذلك أيضا الاحتكام للطاغوت مثل بعض اليهود ومشركي العرب وذلك ما تكشفه لنا الآية٥١ من سورة النساء:

﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴾.

ويحدثنا القرآن الكريم عن نموذج ضلالة في الآية ٢٨ من سورة إبراهيم عن الذين آتاهم الله نعمة منه فبدلا من أن يشكروها كفروا فكان أن حكموا على أنفسهم بالهلاك في الدنيا والآخرة:

﴿ ۞ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ﴾ .

وتمتد الرحلة مع هذا الأسلوب القرآني ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ الذي يلتفت النظر ويحفز الفكر ويدعو إلى التدبر في أمور شتى.

﴿أَلَمۡ تَرَ﴾..

نعم الله وآياته

ونمضي مع سائقنا في استجلاء آيات الله، وسائقنا هو التعبير القرآني: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ يقودنا من أفق إلى آخر ليلفت نظرنا إلى ما لا يجوز أن نغفل عنه أو نجهله.

واليوم نقف مع عدد من الآيات القرآنية المبدوءة بصيغة: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾، وهذه الآيات تلفت نظرنا إلى بعض نعم الله تعالى علينا التي في كل منها آية دالة عليه مذكرة به.

وأولى هذه الآيات قوله تعالى في سورة إبراهيم في الآية ١٩:

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾.

وهذه نعمة هي أم النعم نعمة الخلق والإيجاد من جانب وقيام هذا الخلق على الحق، فالحق اسم من أسماء الله تعالى، فبالحق خلق وبالحق أنزل كتبه وبالحق أرسل رسله وإلى الحق دعا عباده وبالحق يعاملهم في الدنيا والآخرة، وما دام الأمر كذلك فلا بد أن يكون الحق مرجعنا ومنهجنا في حياتنا بالتزام ما أنزل الله تعالى في كتابه.

وفي سورة الحج نجد أنفسنا مرتين أمام الدعوة إلى الرؤية والتنبه إلى بعض

آيات الله تعالى، المرة الأولى توقفنا آية كريمة على ظاهرة متكررة هي الماء النازل من السماء، هذه النعمة التي ألفها الناس ونسبها بعضهم إلى الطبيعة واعتاد عليها حتى فقدت بهجتها وروعتها وما لها من أثر في إحياء الأرض ونمو النبات وما يتبع ذلك من آثار في حياة البشر، وذلك في الآية ٦٣ في قوله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾.

ومن المهم أن نقف على ختام الآية الكريمة وما ورد فيه من أسماء الله تعالى: لطيف وخبير، وواضح أن نزول الغيث من السماء من آثار لطف الله تعالى، ومن تجليات خبرته بخلقه وإحاطته بحاجاتهم التي ييسرها لهم برحمته، فالله تعالى لا يعزب عنه شيء في الأرض ولا في السماء.

والآية الأخرى هي قوله تعالى في الآية ٦٥ من سورة الحج:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

وهنا نحن أمام صورة شاملة تشمل الأرض كلها وكل ما فيها مسخر لنا، وهو مشهد يعجز الحق عن الإحاطة به ولكنه إن لم يدركه بالبصر أحاط به بالتصور والإدراك التدريجي المرتبط بالحاجات، ومن هذا المشهد الممتد نجد صورة مقربة لنعمة مهمة قريبة ونعمة أو قانون كوني، أما النعمة القريبة فهي جريان الفلك في البحر وما يترتب عليها من اكتشاف آيات الله تعالى في البحر

من نقل واكتشاف وحصول على خيرات غير محدودة من السمك واللؤلؤ والمرجان وغير ذلك من النعم، وهناك الآية الخفية البعيدة التي تشمل الوجود كله، هذه الآية التي سماها العلم الجاذبية ولفتت الآية إليها بإمساك الله تعالى أن تقع على الأرض وفي هذا المشهد ما يثير الرعب من جانب ويلفت النظر إلى هذه الكواكب والنجوم المعلقة في السماء والسؤال عما يمنعها من السقوط على الأرض، ولكن في الآية تطمينا بأن الخالق الرؤوف الرحيم هو الذي يمسكها ويدير أمرها برأفته ورحمته.

وفي سورة النور نجد هذا الاستفهام التحريضي: ألم تر في الآية ٤٣ في قوله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾.

والآية تعطينا تصويرا دقيقا لتكون نوع من الغيوم هي الغيوم الركامية التي يكثر فيها البرق والرعد وينتج عنها تساقط البرد، يأتي ذلك لنرتفع مع الآية إلى أفق السماء ونرى الغيوم عن قرب ويعشي البرق أبصارنا وتتجلى لنا جبال البرد التي تتساقط على الأرض مخلفة ما لا يعلم إلا الله تعالى من الآثار.

وفي الآيتين ٤٥و٤٦ من سورة الفرقان نجد ما يلفت نظرنا إلى ظاهرة طبيعية نعيش معها كل يوم تلك هي ظاهرة الظل، وهي ظاهرة مرتبطة بالأشياء والإنسان ومرتبطة كذلك بالأرض والشمس، ويأتي الحديث عنها في

قوله تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾.

ولا يخفى ما للظل من أثر في حياة الإنسان، فهو يقيه حر الشمس، ويمنع ضررها عما يغطيه، ويخفف من التبخر، وفوق هذا فإن في لفت النظر إلى هذه الظاهرة ما يدعو إلى التفكر في علاقة الشمس بالأرض ورفع النظر من سطح الأرض إلى آفاق السماء لاستجلاء التسخير المتجلي لكل ما فيها للإنسان هذا الكائن المكرم. وكم في هذه الظاهرة من الآفاق والأبعاد التي يدرك بعضها كل من يقرأ القرآن الكريم ويراها فيتجلى له منها على قدر علمه وسعة فهمه.

ونمضي مع الآيات القرآنية المبدوءة بـ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ وفق ورودها في السور الكريمة فنجدها في سورة لقمان في الآية ٢٩ ونطل من خلالها على آيات في الأرض وأخرى في السماء، آيات كونية نألفها حتى تذهب روعتها، ونغفل عن منافعها، فلا نشكر الله تعالى الذي أنعم علينا بها ويسر بها حياتنا.

نحن أمام دعوة إلى التحديق في آية الليل والنهار، وما يكون من طول هذا حينا وقصر الآخر حينا، وكأنما هما كائنان متداخلان، يلج كل منهما في الآخر على حساب طوله، ونحن هنا في الآية الكريمة نجد ظاهرة ولوج الليل في النهار والنهار في الليل منسوبة إلى الله تعالى ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ ....﴾ لنتذكره في كل ساعة من ليل أو نهار، في الصيف حين يقصر الليل ويطول النهار وفي الشتاء حين يطول الليل وينكمش النهار، ولتكتمل الصورة ويظهر المشهد

كاملا تتجلى لنا رفيقة نهارنا الشمس المسخرة بأمر الله ليصلح معاشنا وتكون لأرضنا سراجا وهاجا، ويتجلى رفيق ليالينا القمر بتدرجات مراحله عبر الشهر من هلال في أوله إلى هلال في آخره وما بينهما من المنازل التي يتجلى فيها. وما أجمله من منظر يبدو لنا حين نرى الشمس والقمر مركبين في الفضاء يجريان ولكن إلى أجل مسمى ينتهي فيه ذلك الجريان، حين تنتهي المهمة التي خلقا لها.

ويأتي التعقيب في نهاية الآية بذكر صفة من صفات الله تعالى هي الخبرة بما نعمل، في ليلنا ونهارنا وسائر أحوالنا، يتجلى ذلك كله في قوله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

والفلك وتسخير البحر آية من آياته ونعمة من نعمه الكبيرة على الإنسان، ومنظر السفن في البحر والأنهار منظر مألوف لدى الناس في أنحاء الأرض كلها، ولعل الإلف يفقد هذه النعمة جلالها وعظمتها، لأن الإنسان يربط الأمور بالقوانين الطبيعية، والمعجزة العظيمة تصبح بالتكرار أمرا مألوفا عاديا. ولذلك يأتي الحديث عنها في سياق الحديث عن نعم الله وآياته التي تتجلى في كل جانب من جوانب الوجود، ومما يلفت النظر أن الآية ختمت بقول الله تعالى:

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

والذي يستوقفنا هو إيراد وصف ﴿صَبَّارٍ﴾ في ختام الحديث عن نعمة جريان الفلك في البحر، فهل هذا إشارة إلى ما يصيب من يركب البحر من المعاناة التي تحتاج إلى الصبر، وهي نعمة تحتاج إلى الشكر العظيم لأن في ركوب البحر ألوانا من الفوائد. ولا يخفى أن القرآن الكريم تحدث عن نعمة الله بالبحر والفلك في مواضع متعددة من القرآن الكريم.ولننظر في الآية كاملة:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [لقمان: ٣١].

ونجد في سورتي فاطر والزمر حديثا عن نعمة الله تعالى على الإنسان بالماء النازل من السماء وما يكون له من الآثار في الأرض.

وفي آية سورة فاطر وقفة مع الأرض وما في جبالها من الطرق التي تنكشف من خلالها ألوان متعددة ذات ارتباط بالمعادن الموجودة فيها، جاء في الآيتين ٢٧ و٢٨من سورة فاطر ومن اللافت للنظر أن مع الحديث عن آية الماء الذي ينزله الله تعالى من السماء وما يكون له من نتيجة في ظهور ثمرات هناك توقف عند اختلاف ألوان تلك الثمرات، وفي السياق نفسه حديث عن اختلاف الألوان التي تتجلى في الجبال حين شق الطرق فيها وحفرها وتتجلى كذلك في الناس وفي الدواب والأنعام، وهكذا تتجلى في المشهد ألوان ممتدة من النباتات إلى الجمادات إلى الإنسان والكائنات الحية الأخرى، ويتجلى العلماء خاشعين لله تعالى في محراب العلم يدركون عظمته التي تثمر خشية في

قلوبهم، وفي ظلال هذا المشهد تتجلى عزة الله تعالى القادر على الخلق بكل تجلياته، وتتجلى رحمته ورأفته في تجاوزه عن ضعف البشر وغفرانه لذنوب التائبين:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾..

نماذج من البشر

ونمضي مع الدعوة القرآنية للناس إلى الرؤية المتبصرة، والتفكر في ما هو تحت حواسهم بل الامتداد إلى ما وراء الحواس مما تكشف عنه الآيات القرآنية من خفايا الوجود؛ لتكون هذه الدعوة حافزا إلى البحث والنظر، والرحلة بالفكر والبدن، في جنبات الأرض وفي آفاق الكون في عالم الغيب وعالم الشهادة، في الكون وفي الإنسان.

ومما لفت القرآن الكريم نظرنا إليه في صيغة ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ نماذج من المواقف البشرية التي تتكرر في حياة البشر وهي ليست حالات فردية.

ومن ذلك ما ورد في قوله تعالى في سورة النساء في الآيتين ٤٩ و٥٠:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا﴾.

وقد ورد في كتب التفسير أن المقصود بالمتحدث عنهم اليهود، ولكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فإذا كان مذموما من اليهود أن يزكوا أنفسهم بدعاوى مختلفة، وأوهام متعددة فإن الأمر نفسه مذموم من كل أحد، وقد ورد النهي المباشر عن تزكية النفس في مواضع من القرآن الكريم، فصار فعل اليهود نموذجا مذموما منهيا عنه، بل صاروا به مفترين على الله تعالى

بادعاء منزلة متوهمة لهم عنده بأنهم أبناء الله وأحباؤه، وزعمهم أنهم لن تمسهم النار إلا أياما معدودة وغير ذلك من المفتريات.

وبعد هذا الالتفات إلى نموذج تزكية النفس ادعاء، يأتي في السورة نفسها ذم نموذج التحاكم إلى الجبت والطاغوت وقد تحدثنا عنه من قبل ﴿ٱنظُرۡ﴾:

ومن الباب نفسه نجد لفت النظر إلى نموذج من الناس يستجيب لأمر الله في الصلاة والزكاة وفي الكف عن القتال، فإذا جاء الأمر بالقتال كانت استجابته له دون استجابته للصلاة والزكاة وملأ الخوف من الموت قلبه وجرى ذلك على لسانه، ويأتي القرآن الكريم ليصحح هذا الموقف ويعيد تشكيل الميزان ليبين أن الآخرة هي دار القرار، وأن الخوف من الموت وترك الجهاد لا يبعد الأجل ولا يطيل العمر، وذلك ما تحدثنا عنه الآية ٧٧ من سورة النساء:

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبۡتَ عَلَيۡنَا ٱلۡقِتَالَ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖۗ قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظۡلَمُونَ فَتِيلًا﴾.

ومن النماذج التي حدثنا القرآن الكريم عنها في صيغة ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾: الشعراء الذين تعطيهم موهبة الشعر غير المنضبطة بالإيمان صفات خاصة ويكون لهم عالمهم الخاص، وذلك الذي تحدثنا عنه آيات من سورة الشعراء (٢٢٤ - ٢٢٦) في قوله تعالى:

﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾.

ونحن هنا أمام العالم الخيالي الذي يسرح فيه الشعراء، ويرون فيه الأشياء بمنظار الوهم لا بنور الحقيقة، ويصورون الأشياء بعيدا عن واقعها، ولا سيما إذا كانوا ممن لا يؤمنون بالله أو كان إيمانهم ضعيفا وانجرافهم مع أهوائهم شديدا، ولذلك جاء بعد ذلك الاستثناء للمؤمنين من الشعراء في الآية ٢٢٧:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ .

ومن النماذج التي حدثنا عنها القرآن الكريم نموذج ما يطلق عليه اسم الطابور الخامس في عصرنا.والآيات تتحدث عن منافقين ويهود كما ورد في كتب التفسير، لكنه موقف يمكن أن يتكرر من بعد في مواطن يكون فيها المجتمع الإسلامي مخترقا من عناصر مريبة لم يحسن إيمانها فتقوم بسلوك يؤدي إلى الريبة والتخذيل في الصف الإسلامي وذلك ما يشير إليه قوله تعالى في سورة المجادلة:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المجادلة: ٨].

والفعل الذي يقوم به هذا النموذج من البشر جريمة شنيعة يستحقون بها

عذاب جهنم.

ويمضي القرآن الكريم يلفت النظر بـ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ إلى مواقف تثير الريبة وتؤدي إلى سوء مصير أصحابها لسوء نواياهم وقبح أعمالهم، وها هي الآية ١٤ من سورة المجادلة تحدثنا عن موقف بعض المنافقين الذين تولوا اليهود وناصروهم على المسلمين، وهذا موقف يتكرر كلما كان هناك صفان: صف إيمان وصف كفر وقوم مذبذبون لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء وذلك ما تفيده الآية الكريمة:

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾.

وختام الحديث بـ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ عن هذه المواقف والنماذج في سورة الحشر في الآية ١١ التي تحدثنا عن مواقف المنافقين الذين ناصروا اليهود ثم تخلوا عنهم وخذلوهم في أحرج الأوقات، وذلك شأن المنافقين الذين يقومون بدور الشيطان بين الناس قال ربنا في وصف هذا النموذج:

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ .

وهكذا تتجلى من خلال هذا الأسلوب هذه النماذج والمواقف مع دعوة إلى الالتفات والتفكر الذي يؤدي إلى الحذر من سوء العاقبة.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾..

خفايا آيات الله

..ويظل القرآن الكريم يلح على الإنسان بالدعاء الملح المتكرر الداعي إلى الوعي والتنبه والعلم بما هو متاح تحت حواسه، ميسر له التفكر فيه بعقله، وما لم يكن له به علم من خافي الآيات التي لا يعلمها إلا الله خالق كل شيء والعليم بكل شيء رب العالمين.

ومن النوع الأخير مما يدخل في العلم الخفي من آيات الله تعالى ودلائل قدرته وهيمنته على الوجود كله ظاهره وباطنه ما ورد في قوله تعالى في الآية ٨٣ من سورة مريم:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾.

وهذا من أمر الغيب الذي لا يطلع عليه بشر إلا ببيان رباني يكشف عن حال خفي للكفار الذين كفروا بالله وآمنوا بالطاغوت ورضوا بولاية الشيطان وأعرضوا عن ولاية الرحمن، فكانت عاقبتهم إرسال الشياطين عليهم، يغرونهم بالمعاصي، ويهيجونهم إلى ارتكاب المنكرات التي يجدون عاقبتها العاجلة في الدنيا في عقوبات الفطرة بما يصيبهم من الهموم والعقد النفسية، وبما يصيبهم من أمراض جسدية لأن ولاية الشياطين مفتاح كل شر في الدنيا والآخرة.

ومن خفايا الأمور التي أعلمنا ربنا بها في هذا الاستفهام التحريضي مما لا

علم لنا به لأنه لا يقع تحت الحواس قوله تعالى في الآية ١٨ من سورة الحج:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩﴾.

إننا مع هذه الآية نحس أنفسنا في هذا الكون وقد تجلى في صورة مسجد كبير لا حدود له ونرى فيه كل شيء وقد خر لله تعالى ساجدا بل مكررا للسجود في كل حين، حيث ورد فعل﴿يَسْجُدُ﴾ ليدل على الاستمرار والتكرار لنتابع المشاهد في السماوات التي هي مساكن الملائكة المكرمين والأرواح الطاهرة للمؤمنين في عليين، ولتجعلنا نعيد النظر في ما نرى من حولنا في الأرض من كائنات لنراها ساجدة لله تعالى منقادة لأمره تعرفه إلها معبودا لا إله غيره ولا رب سواه.

وقد استخدمت الآية الاسم الموصول (من) وهو يدل على العقلاء. وهذا الاستخدام يردنا إلى الآية ١٥ من سورة الرعد ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ۩﴾ فها هي تخبرنا أن الله تعالى يسجد له من في السماوات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال، وتبرز في المشهد كائنات متميزة لها بالإنسان صلة بل إن بعضها اتخذه بعض الناس آلهة عبدها من دون الله تعالى أو جعلها شريكة له سبحانه في العبادة فهناك من عبد الشمس والقمر، وها نحن نراهما وهما في جو السماء ساجدين لله تعالى

عابدين له مما ينزع عنهما هيبة المعبود حين نرى فيهما انقياد العابد.

ونرى في المشهد ذاته، مشهد السجود والعبودية في الجبال، هذه الكائنات الضخمة البارزة فوق الأرض، فتسقط هيبتها من أنفسنا، بل تتحول في أعيننا إلى كائنات عابدة لله تعالى معنا فنحبها وتحبنا لأننا جميعا عابدون لله تعالى ساجدون له كل على طريقته.

ويبرز في مشهد السجود والعبودية: الشجر، ولنا أن نغمض أعيننا ونسرح بخيالنا ونحن نستجمع صور الشجر في الأرض كلها لنراها ساجدة عابدة منقادة لأمر خالقها تؤدي ما خلقت له وتعطي ما أمرت به لا تتخلف عنه يوما، ومع الأشجار الثابتة في أماكنها الشامخة إلى الأعالي تبرز في مشهد السجود الدواب من الكائنات الحية التي تدب على الأرض من كل شكل وحجم ولون، ولكل منها وظيفة على هذه الأرض فلم يخلق أي منها عبثا، وقد تخفى على بعض الناس وبعض الأجيال وظيفتها لكن حكمة خلقها تتجلى لأجيال أخرى تكتشف بديع صنع الله تعالى وبعض دلائل حكمته لتقوم الحجة على الناس في كل عصر أن لهم ربا حكيما لا بد من عبادته والسجود له انسجاما مع الكائنات الجامدة والحية، المحلقة في السماء والشامخة على الأرض، الثابتة والمتحركة، فهل يجوز لهذا الإنسان الذي تميز عنها جميعا بل سخرت له جميعا أن يكون الناشز في مشهد السجود والعبودية؟

ولذلك جاء الحديث في الآية عن سجود كثير من الناس لله تعالى ولكن كثيرا من الناس هم من المتمردين الذين يأبون السجود ولذلك حق عليهم العذاب وحق عليهم الهوان لتمردهم على ربهم سبحانه.

ومن خفيات الأمور التي علمنا إياها ربنا سبحانه بالاستفهام التحريضي ما ورد في الآية ٤١ من سورة النور:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ .

وفي هذه الآية لا يبرز مشهد السجود بل يتجلى مشهد سمعي هو مشهد التسبيح الذي لو أصخنا السمع جيدا لأدركناه ولسمعناه ولكن أسماعنا مشغولة عنه، ولكننا نسمع من هذا التسبيح ما يكون من الطير من تغريد وزقزقة يحولها هذا المشهد من أصوات (طبيعية) إلى تسبيح لله تعالى بل نجدها واعية بما تقوم به،عالمة بما هو مطلوب منها من صلاة وتسبيح هي ومن يشاركها في شأنها ممن في السماوات والأرض من المسبحين والمصلين فيدعونا هذا المشهد إلى أن ندخل في حلقة الذكر الكونية لنشارك هذه الكائنات في تسبيحها وصلاتها.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾..

آثار عذاب الله

مما دعانا الله تعالى إليه في صيغة ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ التفكر في ما أنزل الله تعالى من العذاب في بعض من سبق من الأمم، وقد جاء الحديث عن ذلك في موضعين، الأول في سورة الفجر في قوله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ (٧) ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ (٨) وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ (١٠) ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ (١١) فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾.

ولا يخفى أن المقصود من صيغة ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ هنا الإعلام بأمر كان ولفت النظر إلى ما فيه من العبرة التي تتجلى فيها دلائل القدرة الإلهية التي لا يعظم أمامها طاغ ولا باغ مهما يكن له من القوة والقدرة، وفي هذه الآيات الكريمة نجد حشدا لأبرز الطغاة في تاريخ البشرية من الأمم والأفراد، فأما الأمم فنجد في المشهد عادا وثمود، ونجد من أوصاف عاد ما يدل على ما كانت فيه من القوة التي تجلت في مدينة ﴿إِرَمَ﴾ ذات العماد، التي لم يكن لها شبيه في البلاد، ولعل من المفيد لاستكمال الصورة مراجعة ما ورد من أخبار عاد الذين قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾؟ والذين قال لهم نبيهم هود محذرا إياهم:

﴿ أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعۡبَثُونَ ١٢٨ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ ١٢٩ وَإِذَا بَطَشۡتُم بَطَشۡتُمۡ جَبَّارِينَ ﴾.

هؤلاء الطغاة الذين حفظ لنا القرآن الكريم بعض أخبارهم ليكون لنا فيهم عبرة، وليكون في ما قد يكتشف من آثارهم في يوم ما شاهد صدق على ربانية القرآن الكريم يجده من يعيش ذلك الحدث ليكون دليلا مضافا إلى أدلة لا تحصى، فيكون في صيغة ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ دعوة إلى التنقيب والبحث للوصول إلى آثار تدل على القوة التي كانت لأولئك القوم الطاغين الذين أهلكهم الله تعالى بجندي من جنوده: الريح التي سلطها عليهم سبع ليال وثمانية أيام.

ومع عاد تبرز في المشهد صورة ثمود الذين ما زالت آثارهم في الصخور التي نحتوها واتخذوها مساكن لهم في الحجر، وشبيه بها ما في البترا، وقوم ينحتون الجبال بيوتا لا بد أنهم كانوا قوما جبارين، ولكن جبروتهم لم يمنعهم من نزول العذاب بهم وهلاكهم بصيحة أخذتهم فصاروا كأن لم يكونوا، وبقيت آثارهم دليلا عليهم وعلى ما حل بهم من عذاب الله تعالى.

ومن الأفراد الطغاة يبرز في المشهد أعتاهم: فرعون الذي قال:

﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾، و﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾، ويبرز أهم ما تركه الفراعنة على مر الدهور: الأوتاد، وأنا أميل مع من رأى أن الأوتاد هي الأهرام، ومما يرجح ذلك أنك حين تنظر إلى الأهرام تراها مثل الجبال العالية، والله تعالى قال في وصف الجبال ﴿وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادًا﴾.

ويأتي الوصف الجامع لعاد وثمود وفرعون أنهم: ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ﴾.

ويأتي المصير المشترك بينهم وهو: ﴿فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ﴾.

وليقف الخيال عند سوط العذاب النازل بأشكال مختلفة على الطاغين في مختلف الأزمان والأماكن.

ثم يأتي بعد ذلك السوط المجهز للطغاة عبر العصور:

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾.

وننتقل إلى سورة الفيل لنجد الأسلوب نفسه:

﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾. مكررا ولكن ليتحدث عن أمر كان قريبا من عهد النبوة ﴿بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ﴾، ولكنه بعيد عن الأجيال الآتية، وهو ما حل بأصحاب الفيل: أبرهة وجيشه الذين جاؤوا غازين لبيت الله الحرام الذي لم يجد من البشر من يدافع عنه فكان التصدي الرباني لذلك الجيش البشري بجيش سماوي:

﴿وَأَرۡسَلَ عَلَيۡهِمۡ طَيۡرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرۡمِيهِم بِحِجَارَةٖ مِّن سِجِّيلٖ ۝٤ فَجَعَلَهُمۡ كَعَصۡفٖ مَّأۡكُولِۭ﴾.

وهكذا يبرز في المشهدين وفي السياق طغيان البشر والعقوبة الربانية التي هي له بالمرصاد.

ألم يروا

لا يدع القرآن الكريم فرصة إلا ويذكر الإنسان بحقائق الوجود، ويدعوه إلى النظر والرؤية والتفكر والتدبر، حتى يظل في نهار دائم لا تغشيه ظلمات الشبهات، ولا غيوم الشهوات، وإن حدث شيء من ذلك سرعان ما ينجلي كما قال ربنا سبحانه:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾.

وهذا على خلاف ما عليه من كفر بالله تعالى فهو في ظلمات دائمة، لا تنفعه آية موقظة، ولا يوقظه حدث هائل، ولا يتجلى له ما في المشاهد المعروضة من الآيات البينات.

وهذا ما دلت عليه أكثر من آية كريمة ومنها قوله تعالى في الآية ١٤٦ من سورة الأعراف:

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾.

فنحن أمام صنف من البشر لا يرى الآيات ولا تنفع معه البينات، لأنه مغلق لنوافذ الإدراك، ومعطل لوسائل التواصل مع الكون من حوله، فهو يعيش في قوقعة الكبرياء التي صنعها لنفسه.

وهذا الحال تبينه الآية ٢٥ من سورة الأنعام: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ۚ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾.

وهذه صورة أخرى لمن عطل كل وسائل الإدراك من: قلب في كنان فلا يفقه القرآن وآياته، وأذن يسدها الوقر فلا تسمع الآيات ولا تنتفع بها، وعين لا ترى الآيات المتجلية آيات؛ ولذلك لا يتسلل الإيمان من خلالها إلى القلب.

هذا الحال الذي يعيشه الكفار يجعلهم يرون الأمور على غير حقيقتها حتى ما كان منها ظواهر طبيعية، ومن ذلك ما بينه قوله تعالى في الآية ٤٤ من سورة الطور:

﴿ وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴾.

فقد بلغ بهم العمى أن يظنوا العذاب النازل من السماء سحابا نازلا عليهم بالمطر. ومثل ذلك رؤيتهم المعجزات الدالة على النبوة سحرا ممتدا.

والنتيجة هي أنهم يظلون على كفرهم ولا يؤمنون، وذلك ما ورد في الآية الثانية من سورة القمر:

﴿ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾.

هذا حال الكافرين حين تحدث القرآن عنهم حديثا مباشرا ووصف واقعهم وصفا يكشف تعطيلهم للرؤية.

وقد وردت في القرآن الكريم صيغة ﴿ أَلَمْ يَرَوْا ﴾ و﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ و﴿ أَفَلَمْ

يَرَوۡاْ﴾ في سياقات متعددة منها ما يحمل العجب من الكفار الذين رأوا الآيات ثم عموا عنها، ومنها ما يلفت النظر إلى آيات متاحة للتفكر والتدبر للوقوف عندها والانتفاع بها.

في مطلع سورة الأنعام حديث عن الكفار وأحوالهم من إعراض عن آيات الله وتكذيب بالحق. ويأتي التعجيب من عماهم عما كان من قبل من آيات الله تعالى في القرون الخالية في الآية ٦ في قوله تعالى:

﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡهِم مِّدۡرَارٗا وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ﴾ .

وفي هذا المشهد تعجب الآية من غفلة الكفار عن حال الأمم السابقة التي كانت في خير ونعمة أكثر مما هم فيه، من مطر نازل وأنهار جارية، وما يترتب على ذلك من رخاء وخيرات، كل ذلك لم يمنع عن تلك الأقوام عذاب الله تعالى حين كذبت بآياته لتصبح سلفا لأمم جاءت بعدها.

وفي هذا تهديد بأن الله تعالى الذي أهلك من سبق لكفرهم يهلك اللاحقين بالذنب نفسه.

ومن الباب نفسه، باب إهلاك الأمم السابقة ما ورد في الآية ٣١ من سورة يس:

﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ .

ومنه ما ورد من الحديث عن قوم عاد الذين آتاهم الله نعما كثيرة فقابلوها بالجحود والاستكبار والغرور بالقوة وتكذيب نبيهم هود عليه السلام فقال الله تعالى عنهم في عجب من عماهم عما يجب أن يروه من آيات الله البينة في الآية ١٥ من سورة فصلت:

﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾.

وهكذا يمضي القرآن الكريم في منهج التنبيه والتذكير وجلاء القلب والحواس لتظل على بينة من أمرها.

أليس عجيبا أن يعيش الإنسان مع آيات الله في نفسه وفي الأرض التي يسير عليها وفي السماء التي تظله، أي يعيش محاطا بالآيات من الجهات الست وأضيف إليها جهة سابعة هي نفسه التي بين جنبيه ثم يقع في الغفلة عنها، ولا يدركها ولا يلتفت إليها؟

ولهذا نجد في القرآن الكريم الذي علينا ألا ننقطع عنه قراءة وتدبرا، نجد تذكيرا دائما بهذه الآيات لمسح آثار الغفلة التي يقع فيها الإنسان لانشغاله بأمور تذهله عنها بل تذهله عن نفسه، ونتذكر هنا قوله تعالى عن هؤلاء: ﴿ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ ﴾.

وقد رأينا في ما سبق بعض حديث القرآن الكريم عن غير المؤمنين في

صيغة ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ تعجبا من غفلتهم وتنبيها للمؤمنين ألا يغفلوا كغفلتهم، وقد وقفنا من قبل على العجب من غفلة الكافرين عما حل بأسلافهم من العذاب وبين أيديهم شواهد من آثارهم.

ونقف على مواضع أخرى وردت فيها صيغة﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ولكنها في مجالات متنوعة تشمل أمورا مختلفة، ومنها الآية التاسعة من سورة سبأ التي تتحدث عن آيات متنوعة تشمل السماء والأرض، وتشير إلى ما لا يلتفت إليه الإنسان من آية استقرار الأرض من تحته، تلك الآية والنعمة التي لا يتنبه إليها الإنسان إلا حين يحدث خسف هنا أو هناك، أو زلزال وبركان، يكون من عواقبهما كوارث كبيرة.

وكذلك في الآية تنبيه للإنسان إلى أن في السماء ألوانا من العذاب المحبوسة عنه، تلك الألوان التي يرى بين حين وآخر مثالا منها، ومن ذلك النيازك والشهب التي تتنزل نحو الأرض. نجد هذا في قوله تعالى:

﴿أَفَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِن نَّشَأۡ نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ نُسۡقِطۡ عَلَيۡهِمۡ كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾.

ونجد من الآيات ما يحاور الإنسان الكافر ولكن في صورة الغائب لا المخاطب وكأن في هذا الأسلوب تغييبا لهم لأنهم غابوا عما لا ينبغي أن يغفلوا عنه من آيات ربهم سبحانه الذي خلقهم وخلق لهم كل وسائل الحياة على الأرض بل سخر لهم كل ما في الوجود من حولهم، هذا الإله الذي خلق السماوات والأرض لا يعجزه شيء، فلا يعجزه أن يعيد خلقهم أو يذهبهم

ويخلق مثلهم فهو على كل شيء قدير، ودلائل قدرته لا تخفى إلا على عمي القلوب.

وهذا ما ورد في سورة الإسراء في الآية ٩٩: ﴿ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴾.

ويكون خلق السماوات والأرض وما فيهن من دلائل القدرة الإلهية والآيات الباهرة الظاهرة، يكون ذلك كله دليلا على البعث بعد الموت، فخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس، والذي يخلق الكبير لا يعجزه الصغير، والذي يبدأ الخلق يكون أهون عليه أن يعيده، إلا عند مماحك عمي قلبه، وانطمست حواسه واسودت مراياه فلا تنعكس فيها دلائل القدرة.

تتجلى هذه المعاني في قوله تعالى في الآية ٣٣ من سورة الأحقاف: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

ويعجب الله تعالى من الكافرين الذين يرون بداية الخلق ثم يعجبون من إعادته، وفي هذا العجب لفت للنظر إلى القدرة التي تجلت أول مرة والتي تتجلى مرة أخرى عند بعث الموتى، ودعوة إلى البحث في كيفية نشوء الخلق وتجلي الآيات في المخلوقات وذلك في الآية ١٩ من سورة العنكبوت:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾.

ويمضي القرآن يطرق قلوب الكافرين وحواسهم ويستثير لديهم التفكير ويدفعهم إلى النظر مرة بعد مرة وفي موضوع تلو الآخر، وها هو يلفت النظر إلى حال الناس مع الرزق، وهو أمر حير العقلاء عبر مسيرة الإنسان، فليس للرزق قانون معلوم، فلا يرتبط بذكاء ولا يرتبط بعلم ولا يرتبط بعمر، يتلخص أمره في قوله تعالى:

﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الزُّخرُف: ٣٢].

ويركض بعض الناس في الأرض ركض الحيوانات في البرية ثم لا ينال إلا ما قسم له مع السعي.

وها هي الآية ٣٧ من سورة الروم تلفت النظر إلى بسط الرزق وقبضه في إشارة موجزة بليغة ولكنها تفتح للعقل الواعي باب التفكير الواسع:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ .

نعم في الرزق وتقسيمه آيات لقوم يؤمنون، بل في كل جانب من الكون آيات لمن يعقلون.

وتمضي آيات القرآن الكريم في تقريع وتنبيه لا ينتهيان؛ للكافرين الذين تعاموا عن آيات الله تعالى المبثوثة في كل اتجاه.

وها هي الآيات الكريمة تلفت النظر إلى مجموعة من الظواهر الكونية والكائنات الطبيعية التي يتصل بها الإنسان وتتصل به لا يجوز أن يمر بها أو تمر

به وهو في غفلة عنها وعن تجلي آيات الله تعالى فيها. ومن ذلك آية نقص الأرض من أطرافها. وأقرب ما يمكن قبوله من معنى في هذه الآية نقص ديار الكفر وزيادة ديار الإسلام لأن الأمر مما كان يمكن أن يدركه الكفار في عهد التنزيل، وذلك ما ورد في قوله تعالى في الآية ٤١ من سورة الرعد:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

ومما يزيد هذا الفهم قبولا ما ورد من حديث عن حكم الله الذي لا معقب لحكمه وحسابه السريع للعباد، وفي هذا الأمر عبرة تتجلى في ما كان من نصر الله تعالى لعباده الذين كانوا مستضعفين في الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس فآواهم ونصرهم وخذل عدوهم بل امتد نور الإسلام من بعد إلى مشارق الأرض ومغاربها بل إننا في هذا الزمن الذي انطوت فيه الهيمنة السياسية للإسلام نجد امتداده وتأثيره الذي يثير رعب دول كبرى فتلجأ إلى تشريعات تسعى إلى الحد من المد الإسلامي.

وآية أخرى كريمة من آيات الله تعالى تشير إلى غفلة الكافرين عنها هي آية الظل التي ورد عنها الحديث ولفت النظر في صيغة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾.

وهنا في الحديث عن الكافرين وغفلتهم جاء الحديث عنها وعن غفلتهم عنها مع أنها آية ممتدة في حياة البشر يلمسون نعمة الله تعالى فيها، وذلك ما نجده في الآية ٤٨ من سورة النحل: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ

ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ وَهُمۡ دَٰخِرُونَ ﴾.

وكم في هذه الآية من تقريع للبشر الذين يستكبرون عن السجود لله تعالى الذي تسجد له ظلال الأشياء.

وتمضي الآيات تجوب أقطار هذا الوجود تلتقط ما فيها من الآيات البينات التي يغفل عنها الكافرون، ويجب أن يتنبه إليها المؤمنون، ومنها آية الطير، وقد جاء الحديث عنها في موضعين في سياق ﴿ أَلَمۡ يَرَوۡاْ ﴾ الأولى في قوله تعالى في الآية ٧٩ من سورة النحل:

﴿ أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾.

فمنظر الطيور المسخرة في السماء بمختلف أشكالها وأحجامها لا بد أن يلفت النظر ويثير التساؤل ويكشف عن بعض دلائل القدرة الربانية. ومن المهم التوقف عند كلمة ﴿مُسَخَّرَٰتٖ﴾ فطيران الطيور ليس عن مزاج أو رغبة بل هو تسخير رباني.

وهناك آية أخرى تتحدث عن الطير في الآية ١٩ من سورة الملك:

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ﴾.

وتلفت هذه الآية النظر إلى اصطفاف الطير في السماء وكونها في قبضة

القدرة الربانية، والآية السابقة لفتت النظر إلى الآيات المتجلية في الطيران نفسه.

ومن التحليق في جو السماء مع الطير تنقلنا الآيات إلى الأرض وما تنبت من أنواع النبات التي لا يكاد يحصرها الإحصاء مع الإشارة إلى ظاهرة الزوجية في النبات التي يعد حديث القرآن عنها في أكثر من موضع دليلا من أدلة لا تحصى على ربانية القرآن الكريم.

جاء في الآية ٧ من سورة الشعراء: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾.

وقد جاء الحديث عن آيات الله تعالى في النبات في سياق الرد على الكافرين الذين طلبوا من رسول الله ﷺ آية فسردت لهم سورة الشعراء آيات جاء عقب كل منها: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

فكل نبتة في الأرض آية دالة على قدرة الله وحكمته، يدركها المؤمنون، ويعمى عنها الكافرون.

وقد جاء الحديث عن آية النبات وإعراض الكفار عنها في الآية ٢٧ من سورة السجدة ولكن مع ربط النبات بما جعله الله تعالى سببا للحياة في الأرض وهو الماء الذي يرسله الله تعالى إلى الأرض الميتة فتدب فيها الحياة:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾.

ولفت النظر هنا إلى الزرع الذي يأكله الناس والأنعام التي جعلها الله تعالى مصدر خير متنوع للإنسان.، وكم سيشعر الإنسان بنعمة الله عليه لو أمسك ورقة وقلما وسجل ما يأكل من أنواع النبات التي يخرجها له ربه من تراب الأرض، هي نعم لا تحصى، وآيات لا تعد.

وكان للأنعام نصيب في الآيات التي تحدثت عن غفلة الكافرين وهل يستغني الناس حيث كانوا عن الأنعام التي يتمتعون بلحومها وألبانها وجلودها وأشعارها ووبرها،ولهم فيها منافع شتى في الركوب والحراثة وحمل الأثقال، وغير ذلك فكيف تكون الغفلة غن خالقها الحكيم الخبير؟

وقد جاء ذلك في الآية ٧١ من سورة يس: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ﴾.

وما أشده من عتاب وما أعلاه من تكريم يجتمعان في قوله تعالى ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ فأي حق عظيم لله تعالى على هذا الإنسان الجاحد الذي خلقه الله تعالى بيده وأسجد له ملائكته وخلق له (بأيديه) أنعاما يتمتع بها وجعلها مسخرة له يتملكها؟

وتمضي الآيات الكريمة لتلفت النظر إلى آيتي الليل والنهار اللتين تتعاقبان على الأرض ولهما في حياة البشر أثر كبير وذلك في قوله تعالى في الآية ٨٦ من سورة النمل:

﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ

يُؤۡمِنُونَ ﴾.

فالليل للسكون واستعادة القوة بعد سعي نهار كامل، ذلك النهار الذي تنكشف فيه الأشياء فيبصرها الناس.

ولا بد من وقفة عند وصف الآية للنهار أنه مبصر وكم في هذا الوصف من تشخيص موح يحول النهار من زمن محدود إلى كائن حي يتعايش الناس معه ويبصرون ببصره.

وأخيرا يقف القرآن الكريم مع أهل مكة الكفار ثم مع الناس جميعا في ظاهرة تلفت النظر هي الأمن الذي أحاط بمكة المكرمة منذ كانت مع الخوف الذي كان يعيشه من هم خارجها في جزيرة العرب وفي العالم، هذا الأمن آية من آيات الله تعالى الدالة على قدرته بحمايته بيته الحرام.

﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَكۡفُرُونَ ﴾ [سورة العنكبوت: ٦٧].

وهكذا تمتد الآيات الدالة على القدرة الإلهية والحكمة الربانية في آفاق الوجود لتقيم الحجة على الناس وتفتح لهم نوافذ الإيمان إن أرادوه.


الأزمات
والرحمات في
سورة الكهف

سورة الكهف... كهف المؤمن

كتاب الله تعالى يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً، وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً.

كتاب الله النور والهدى والشفاء للمؤمن. وفي كتاب الله سور وآيات ذوات خصوصية معينة ولذلك أوصى النبي ﷺ اتباعه بها، أن يقرؤوها في أوقات معينة وأحوال مخصوصة: فسورة الملك تقي قارئها من عذاب القبر، وآية الكرسي تقي قارئها من الشيطان، ومن داوم على قراءتها عقب كل صلاة دخل الجنة.

ولسورة الكهف خصوصيات:

فمن قرأها يوم الجمعة أضاء له نور من الجمعة إلى الجمعة التي تليها، وأضاء له نور من مكانه إلى البيت الحرام. (   )

ومن حفظ عشر آيات من أولها – في إحدى الروايات – عصم من فتنة الدجال.

ولسائل أن يسأل: لم حرص النبي ﷺ على أن يقرأ المسلم سورة الكهف يوم الجمعة، وما الذي فيها مما يراد استذكاره كل أسبوع؟

لا شك في أن القرآن العظيم لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق على كثرة القراءة، ولا تشبع منه العلماء بل تنكشف منه وجوه من الإعجاز لكل قارئ يقرأه ولكل متدبر لآياته وقد قال أهل العلم في سورة الكهف وما تحمله من

دروس، وما يزال مجال القول مفتوحاً.

وقد لفت نظري في هذه السورة العظيمة أنها تحوي مجموعة من القصص من أولها إلى آخرها: قصة أصحاب الكهف، وقصة صاحب الجنتين وصاحبه، وقصة موسى عليه السلام والعبد الصالح، وقصة ذي القرنين

ومما يلفت النظر في هذه القصص أنها تحوي أزمات، في كل منها أزمة وهذه الأزمات صنفان: أزمات انتهت بالرحمة وتفريج الكربة وهي الأغلب في هذه القصص، وصنف انتهى بالعذاب وهي قصة صاحب الجنتين، مما يجعلني أقول إن في سورة الكهف حديثاً عن أزمات ورحمات يراد من المسلم أن يقف عليها في كل أسبوع، لتكون هذه السورة ملاذاً له يتخلص بها من كل أزمة تلم به، ويعلم أن ربه يفرج كل هَمّ.

كان ذلك شأن كل من أصابتهم أزمة وتنزلت عليهم رحمة في قصص سورة الكهف.

وفي ذلك تفسير عملي لقوله تعالى:﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ [الطلاق: ٢ - ٣].

إن مما يلاحظ في الأزمات التي تحدثت عنها سورة الكهف أنها أزمات متنوعة:

فهناك أزمة مجموعة مؤمنة مع قومها (أصحاب الكهف)

وهناك أزمة صاحب الجنتين مع النعمة التي كانت عنده ومع صاحبه الذي حاوره، وأزمة أصحاب السفينة مع ملك زمانهم وما كان يحيط بالسفينة

من خطر المصادرة، وأزمة الوالدين المؤمنين مع الولد غير الزكي، وأزمة اليتيمين مع الكنز المهدد بالضياع بانهيار الجدار الدال عليه، وأزمة الشعب الضعيف مع يأجوج ومأجوج.

ومن هذه الأزمات أزمات فردية وجماعية، اقتصادية واجتماعية وسياسية،

فهل في هذا الفهم بعض ما يراد من قراءة سورة الكهف؟

الأمر يقتضي وقوفا مفصلا مع كل قصة لنرى الأزمة والرحمة في كل منها.

الأزمة والرحمة في قصة أهل الكهف

القصة الأولى التي تواجهنا في سورة الكهف هي قصة أصحاب الكهف، وبها سميت السورة، ولا يخفى ما في القصة من أزمة ورحمة لمن قرأها متدبراً.

إننا أمام سؤال يمهد لقصتهم:

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴾.

وكأن هذا السؤال ينفي العجب عن أصحاب الكهف وحدهم ويمده إلى كل آيات الله المبثوتة فيما تقع عليه الحواس، فإذا عجب الناس من أصحاب الكهف وحالهم فإن فيما بين أيديهم من آيات أعجب منها!

والعجب في قصة أصحاب الكهف أنهم ناموا سنوات طويلة ثم استيقظوا من نومهم العميق ليكون حالهم ذلك دليلاً على البعث، وكم فيما حولنا من الآيات ما نرى فيه آيات الموت والبعث.

إننا أمام أزمة توجزها الآية العاشرة: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ .

لقد فروا إلى الكهف، وهذا الفرار علامة وجود أزمة، وهي أزمة لم يجدوا من يحلها لهم من قومهم فيلجؤوا إليه، أو يستعينوا به، فكان لجوؤهم إلى الكهف، استعانة بربهم وقد طلبوا للأزمة رحمة من لدن الله تعالى، وطلبوا أن يلهموا من أمرهم ما يناسب الموقف.

ويبدو أن لجوءهم إلى الكهف كان فيما أرادوا خروجاً من ديارهم بحثا

عن مخرج من الأزمة، فهل يذهبون إلى قرية أخرى؟

لقد كانوا في حيرة من أمرهم، ولكنهم وكلوا أمرهم إلى الله تعالى الذي استجاب لدعائهم، وهيأ لهم من أمرهم مرفقاً، وكان الخلاص من الأزمة، وكان تجلي الرحمة بأن غرقوا في نوم طويل ثم بعثوا من نومهم ليكونوا آية لأهل زمانهم.

وبعد الإيجاز نجد شيئاً من تفصيل حالهم: إن أزمتهم مع قومهم هي أزمة إيمان، فقد آمنوا بالله وبقي قومهم على كفرهم، ولقوا من الله تعالى الإكرام بزيادة الهدى، وتثبيت القلب في مواجهة القوم الكافرين بالجهر بكلمة التوحيد ورفض عبادة آلهة من دون الله تعالى، بل التشنيع عن قومهم الذين عبدوا آلهة لا دليل على ألوهيتها، وهنا بدأت الأزمة وبدأت مضايقة القوم وسعيهم إلى رد هؤلاء الفتية عن دينهم، وإعادتهم إلى عبادة الآلهة.

وكان الأمر من الجد أن لم يجد الفتية لأنفسهم مكاناً بين قومهم أو عوناً من أخ أو أب أو قريب، فكلهم تآلبوا عليهم فلم يعد لهم مقام إلا هذا الكهف الذي أووا إليه بحثاً عن مخرج، فكان المخرج بالنوم العميق، والرعاية الربانية التي تجلت بالشمس التي تطل عليهم صباحا ومساء، وبجعل هيئتهم هيئة المستيقظ وهم نيام، وبتقليبهم ذات اليمين وذات الشمال حتى لا تتقيح جنوبهم، ومعهم كلب يحرس كهفهم يخيف من يقترب منه.

أي رحمة أعظم من ذلك، وأي عناية أعلى؟

وقد تجلت الرحمة بقومهم الذين آمنت ذراريهم بعد سنين، حين اكتشفوا

وجودهم بعد استيقاظهم، وعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها، فأقاموا على كهفهم بعد موتهم مسجداً.

ولا بد في الختام من وقفات ونحن نرى الرحمة تجبّ الأزمة، من هذه الوقفات: ألا نشغل أنفسنا في قصص القرآن بما هو غير مقصود منها ونتنبه إلى الغاية منها، الغاية من قصة أهل الكهف الكشف عن: آية من آيات الله، وأما العدد ومدة النوم فذلك غير مقصود، ومن ذلك أن هذه الأزمة لهؤلاء الفتية حلتها رحمة الله حين صدقوا الله، فكل من وقع في أزمة إن صدق مع الله أغاثه كما أغاث أهل الكهف... والله أعلم.

أزمة صاحب الجنتين

الله تعالى يجيب المضطر إذا دعاه، والله تعالى ينعم على الإنسان ليبلوه أيشكر أم يكفر، وقد بين ذلك في مطلع سورة الكهف:

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾.

وفي قصة صاحب الجنتين بيان ذلك.

إننا أمام إنسان أتم الله عليه نعمته، فكان تمام النعمة عليه سبباً في وقوعه في أزمة، لم يكن تمامها بالرحمة بل بالنقمة، أما الأزمة فهي الغرور بما أوتي، والفرح بمتاع الدنيا، فهو لم يشكر ربه المنعم بل حجبته النعمة عن رؤية ربه.

لقد وصف لنا القرآن الكريم تمام النعمة عليه بجنتين من أعناب حفتا بالنخيل، وامتلأتا بالزرع، وآتتا أكلهما في أحسن حال، وزادت النعمة بنهر يشق الجنتين، وكانت قمة غروره في قمة تمام النعمة عليه حين رأى الثمار الدانية، وكل تفاصيل المشهد، فوقف في حوار مع صاحب له مؤمن، لكنه لم يؤت من نعيم الدنيا مثل ما أوتي، فبدلا من أن يقف منه موقف الرحمة والإحسان، وقف موقف الغرور والاستكبار، فقال: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ بل بلغ به الأمر أن وصل إلى مرحلة الإحساس بالخلود الوهمي، فلم تعد جنتاه جنتين على الأرض، تصيبان الخضرة والثمار في الصيف ويعروهما الجفاف واليبس في الخريف، بل تولد لديه إحساس بأنه في جنة الخلد التي وعد

الله عباده المتقين ولذلك جرى على لسانه هذا الوهم ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾ بل ثبت لديه هذا الوهم بأنه في جنة الخلد حين قال: ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾ وهل تقوم الساعة بعد دخول الناس الجنة؟!.

ويبدو أنه جامل صاحبه في معتقده أو سخر منه حين قال ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ .

لقد كان صاحب الجنتين في أزمة كفر بالنعمة، وواجه صاحبه المؤمن أزمة من نوع آخر هي رؤية هذا الكفر المستعلي بما أنعم الله، الغافل عن الله، فكان حواره في محاولة لرد صاحبه عن كفره تذكير بحقيقة أمره: الخلق من تراب ثم نطفة ثم تكوينه رجلاً.

وبيان الموقف المضاد موقف الإيمان بالله رباً لا شريك له من نفس أو هوى أو نعمة، وبيان الموقف السليم من النعم ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ ثم لما رأى استكبار صاحبه دعا عليه بأن يرسل على جنتيه حسبانا من السماء أو يغور ماؤها! ولعل صاحب الجنتين سخر واستهزأ من دعاء صاحبه، وأسمعه من الكلام ما يؤذي، مما يجعلنا أمام رجلين في أزمتين: كافر بالنعم في أزمة غرور، ومؤمن بالله في أزمة دعاء.

وجاء الفرج بالنقمة ممن كفر واستكبر، وإجابة دعاء من آمن بالله وأخلص النية.

أزمة موسى عليه السلام والعلم

تحدثت سورة الكهف عن أزمة وقع فيها موسى عليه السلام لم يجد لها حلاً إلا لدى رجل لم يحدد الله تعالى له موقعه، بل جعل لذلك الموقع علامة، هي أن يجعل معه مكتلاً فيه سمكة، فإذا فقدت السمكة في مكان فهناك يجد ذلك العبد الصالح الذي يحل له أزمته، ولنستمع إلى الحديث النبوي يوضح لنا ملابسات أو مقدمات اللقاء بين موسى والعبد الصالح فيما رواه البخاري: «أن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل، فسئل: أي الناس أعلم؟ قال: أنا، فعتب الله عليه إذ لم يَرُدَّ العلم إليه، فأوحى الله إليه: إن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك، قال موسى: يا رب وكيف لي به، قال: تأخذ معك حوتاً فتجعله بمكتل فحيثما فقدت الحوت فهو ثمّ».

لقد أحس موسى عليه السلام أنه وقع في أزمة، إذ لم يرد العلم إلى الله تعالى، بعد أن جاءه العتاب، وتولد لديه الشوق إلى لقاء هذا الرجل الذي هو أعلم منه، ولذلك جاء قوله لفتاه: ﴿لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا﴾.

ولنقف على قوله: لا أبرح: أي لا أزال سائراً، وسبب هذا القول أن الموقع لم يحدد، فعليه أن يمضي حتى يجد العلامة الدالة على مكان العبد الصالح.

ولنقف مرة أخرى على قوله ﴿أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا﴾.

وقد أورد المفسرون في الحقب أقوالاً: حقبا من الزمان، أو سنة، أو ثمانون سنة، أو دهراً، ودلالة القول: السير حتى يبلغ غايته مهما ينفق في ذلك من الزمن.

والمقدمات التي أحاطت بالأزمة توحي بالرمزية في العلم الذي سيلقاه لدى العبد الصالح، وقد يرد علينا سؤال هو لماذا لم يحدد (مجمع البحرين) ولم يعين له أين يجده في ذلك المجمع؟ ونمضي مع موسى عليه السلام في أزمته بين موقف مضى مع قومه عوتب عليه، وموقف مقبل عليه لا يدري كيف سيكون حاله فيه.

وأسئلة تراوده: أي علم لدى هذا الرجل ليس عندي وأنا قد أنزلت عليَّ التوراة؟

وتنتقل الأزمة في الطريق من موسى إلى فتاه الذي لم يكن على علم بالعلامة الدالة على مكان العبد الصالح، فقد كان يحمل المكتل وفيه (السمكة/ الحوت) التي كانت معدة للغداء وفي موضع من الطريق نزلا إلى صخرة، وعندما قاما نسيا المكتل وفيه السمكة، وانطلقا ويبدو أن الفتى تذكر السمكة والمكتل بعد قليل من الانطلاق، فرجع إلى الصخرة، فوجد المكتل فارغاً ووجد الحوت قد اتخذ طريقاً إلى البحر القريب من خط سيرهما، وعقدت الدهشة لسان الفتى، وخاف أن يخبر موسى عليه السلام بالأمر، فطوى الخبر، ومضى مع موسى، عليه السلام حتى جاءه طلب الغداء المصحوب بالشكوى من العناء: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ .

وهنا يكشف الفتى عن أزمته مع الحوت لتكون حلا لأزمة موسى في البحث عن مكان العبد الصالح، ولتبدأ سلسلة من الأزمات بين موسى عليه السلام والعبد الصالح الذي يرى من هذا العبد الصالح ما يثير الدهشة ويطلق اللسان، لتنكشف رموز لما يجري في الحياة من أقدار تحل أزمات الناس وهم في غفلة عن الحكمة الكامنة فيها.

أزمة موسى عليه السلام والعبد الصالح

لقي موسى عليه السلام العبد الصالح في مجمع البحرين، بعد أن رأى العلامة التي تدله على مكان وجوده، وهي علامة خارقة للمألوف: أن يتخذ حوت طريقه إلى البحر سرباً بعد أن شوي ومُلح!!

إننا في جو بدأ بالدهشة وهي فيه سيدة الموقف! ونجد العبد الصالح منذ البداية يحذر موسى عليه السلام بأنه لن يستطيع الصبر على ما يراه منه!

﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ مع التعليل لما سيطرأ عنده من قلة الصبر. ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ وكما ورد في الحديث أن العبد الصالح قال لموسى: "يا موسى إني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله علمكه لا أعلمه".

ولعل هذا القول زاد موسى عليه السلام رغبة في الاستكشاف، وزاد إحساسه بالأزمة العلمية التي كانت شرارة الرحلة ومنطلقها، ونلمس الإصرار لديه في قوله: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ .

إنهما الصبر والطاعة زاد موسى عليه السلام في صحبة العبد الصالح، اتخذهما ليستكشف ما لم يكن عنده علم به.

ولا بد من التمهيد قبل الدخول في الرحلة مع موسى عليه السلام والعبد الصالح بالإشارة إلى وصف القرآن لهذا العبد الصالح: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ

رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا ﴾.

وقد تم تقديم الرحمة على العلم في وصف العبد الصالح لأمر مهم سنجده في سياق الحديث عن المواقف الثلاثة التي شهدها موسى مع العبد الصالح، وولّد كل موقف منها أزمة لديه، مع أن ما قام به العبد الصالح كان رحمة من الله تنزلت من خلاله لحل أزمة من الأزمات.

لقد وضع العبد الصالح شرطاً للصحبة: الصبر على ما يراه حتى يكون البادئ بالحديث عنه العبد الصالح وظن موسى أنه قادر على الوفاء بالشرط، طمعا في الحصول على العلم الذي لم يكن لديه من قبل.

لقد حدثنا القرآن الكريم عن مواقف ثلاثة كانت من العبد الصالح، واستفز كل موقف منها موسى عليه السلام.

الموقف الأول: العبد الصالح والسفينة: ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرٗا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ﴾.

والذي يلفت النظر في موقف موسى عليه السلام أنه لم يسأل بل اعترض، واتهم بهذا الاعتراض من سار معه ليتعلم منه علماً لا علم له به! ولم يضبط نفسه بأن يرجع إلى الشرط الذي اتفقا عليه، وبأن يتهم نفسه بعدم إدراك الغاية، لا اتهام هذا العالم - العبد الصالح بفعل ما لا يناسب الموقف!.

وقد جاء الرد الهادئ الرزين من العبد الصالح العالم ﴿أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن

﴿تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ . واستذكر موسى ﷺ الشرط الذي اتفقا عليه فاعتذر بالنسيان وألا يرهقه من أمره عسرا!!. ويبدو أن موسى ﷺ أحس بالرهق مما رأى من موقف لا يستطيع السكوت عليه. وتكرر الأمر مرة أخرى في موقف أشد من الأول: موقف قتل نفس زكية بغير نفس! ولذلك جاء الاعتراض ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾ وتكرر التذكير وتكرر الاعتذار مع شرط ألا يسأل فإن سأل انفكت الصحبة.

وجاء الموقف الثالث: موقف قلة المروءة من أهل القرية الذين لم يكرموا الضيف الذي طلب الطعام مع أنه حقه من غير طلب، ثم تقديم الإحسان إلى قرية أهلها لا يحسنون استقبال الناس! إنها أزمات أثارت موسى عليه السلام، وخفيت عليه الرحمات الكامنة فيها، وذلك ما بينه له العبد الصالح.

الرحمات في أزمات العبد الصالح

لقد وصف القرآن الكريم العبد الصالح بقوله ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾.

وقد سبق ذكر الرحمة ذكر العلم، ليكون ذلك دالاً على أن ما يصدر عنه هو رحمة مبنية على علم، وذلك ما خفي على موسى عليه السلام عند صحبته له، فكان منه الاعتراض الأول والثاني والثالث، مع أنه كان يعتذر عن كل اعتراض مع وعد بالسكوت، ولكن عدم إدراك الغاية، والنظر إلى ظاهر الحدث كان يستفزه.

لقد أحسن أصحاب السفينة إلى موسى عليه السلام والعبد الصالح، وكان من العبد الصالح من العمل ما ظاهره مقابلة الإحسان بالإساءة، بأنهم لم يأخذوا اجرة الركوب بخرق السفينة بما يعيبها، بل ظن موسى عليه السلام أن الخرق قد يغرق أهلها، وهو غير ذلك، لقد نسي موسى عليه السلام أنه مع رجل عالم علمَّه الله من الأمر ما لم يعلمه موسى عليه السلام، علم مسار السفينة والسلطة المحيطة بهذا المسار من الملك المتجبر الذي يصطفي من السفن ما يليق به، ويبدو أن السفينة قبل الخرق كانت تلفت النظر، وكانت معرضة للغصب من رجال الملك، لقد كان أصحاب السفينة في أزمة تهدد مورد رزقهم، فجاء هذا الخرق رحمة من الله بهم جرت على يد العبد الصالح، ولننظر في الأمر كيف جلاّه العبد الصالح لموسى عليه السلام أن العيب قد يكون سببا في حفظ النعمة. ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ

لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا ﴾.

والإشارة إلى كون أصحاب السفينة (مساكين) يوحي بأن الرحمة تنزلت لنصرة الضعيف وحفظه من بطش المتجبر الذي يغصب حقوق الناس. ولا بد أن موسى عليه السلام كان يهز رأسه وهو يستمع إلى التعليل وفي نفسه تلك القاعدة الذهبية ﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾. وتلك كانت أزمة اقتصادية تنزلت لحلها الرحمة على يدي العبد الصالح.

وأما الموقف الثاني فهو أزمة أسرية، أبوان مؤمنان لهما غلام غير زكي النفس، وغير قابل للتربية والإصلاح، ولم يكن من سبيل لتحقيق الراحة للوالدين المؤمنين إلا أخذه بالقتل! وهل يصبر موسى عليه السلام حين يرى العبد الصالح يقتل غلاما ظاهره أنه نفس زكية لم تجن ذنبا؟!.

ولذلك جاء الاعتراض ﴿أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا﴾ لقد حكم موسى عليه السلام على ظاهر الأمر، ونظر العبد الصالح بالعلم الذي لديه إلى حال الوالدين، وتنزلت الرحمة عليهما على يديه بتخليصهما من هذا الولد الذي إذا كبر ارهقهما طغيانا وكفراً، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل كان من تمام الرحمة والنعمة ﴿أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا﴾. فمن أين لموسى عليه السلام بهذا العلم الذي أطلع الله عليه عبده الصالح؟

وكذلك **كان الموقف الثالث:** كان هناك غلامان معرضان لأزمة مستقبلية، هي ضياع كنز لهما جعل أبوهما علامته بجدار قائم فوقه، فإن بقي الجدار كبرا

واستخرجاه، وإن هدم الجدار ضاعت العلامة والكنز، وهذان الغلامان اليتيمان يعيشان في قريـة لا مروءة لأهلهـا ولا عهـد، فمن لا يكرم الضيف لا يرعى حق اليتيم، فكانت الرحمة المنزلة على يد العبد الصالح بإقامة الجدار لا إكراماً لأهل القرية التي لم تطعمهما، بل رحمة بالغلامين اليتيمين اللذين نفعهما صلاح والدهما فسخر لهما عبداً صالحا من عباد الله رعى أمرهما وأقام العلامة الدالة على كنزهما، لم يكن العبد الصالح يفعل ما يصدر عنه بهوى أو رغبة ذاتية، بل كان بأمر الله ووحيه، تحقيقا لغايات تمضي بها الحياة على سواء، وفي المواقف الثلاثة مجالات للتفكير والتدبر في رؤية الرحمة، وفي التبصر في حكمة الله التي خفيت على موسى عليه السلام وتخفى على كثير منا، فتأتي هذه المشاهد لتقول لنا: إن خفيت عنكم الحكمة، ولم يتجل وجه الرحمة فاتهموا أنفسكم ولا تتهموا القدر ولكم في موسى أسوة!!.

الأزمة والرحمة في قصة ذي القرنين

في نهاية سورة الكهف نجد قصة ذي القرنين، هذا العبد الصالح الذي آتاه الله الملك، وأمدَّه بأسباب القوة، وبلغ مشرق الأرض ومغربها، وحكم في الأرض بشرع الله.

﴿قُلْنَا يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾.

لقد ورد في قصة ذي القرنين ذكر ثلاث أقوام: قوم عند مغرب الشمس كانوا صنفين: صالحين وظالمين، وقوم عند مطلع الشمس:﴿لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ وقوم من السدين ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ هؤلاء القوم الأخيرون يمثلون الطفولة البشرية في قلة إدراكها وضعف قوتها أمام المعتدين، ولذلك وجدناهم يجدون في ذي القرنين ملجأ لهم لحل أزمتهم مع يأجوج ومأجوج المفسدين في الأرض الذين أصاب إفسادهم أولئك القوم ولم يكن لهم حيلة لدفعه.

فنحن أمام أزمة من نوع جديد مختلفة عن الأزمات التي وردت في السورة: أزمة الفتية المؤمنين (أصحاب الكهف) مع قومهم، وأزمة صاحب الجنتين، والأزمات الثلاث في قصة موسى والعبد الصالح.

إن الأزمة في قصة ذي القرنين أزمة قوم مع شعب مفسد، والمخرج منها

ليس تدخلاً إلهياً مباشراً كما حدث في قصة أصحاب الكهف، وفي قصة صاحب الجنتين، وليس مخرجاً من فرد هو عبد صالح يسخره الله تعالى لتنفيذ قدره، بل نحن أمام ملك امتد سلطانه من مشرق الأرض إلى مغربها، وأتاه الله من كل شيء سبباً ولذلك لم يتقبل ما عرضه عليه أولئك القوم ﴿نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ وكان له غنى فيما آتاه الله تعالى ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ ولكنه أراد أن يستثمر القوة البدنية لأولئك القوم لتحقيق ما فيه مصلحتهم، وهذا منهج إيجابي في التعامل مع الأزمات، فهو لم ينب عنهم في حل أزمتهم بل أشركهم في الحل، وقدم لهم منهجاً في البناء الذي يحول بينهم وبين أعدائهم، ويجعل في أمان، لقد سخرهم في استجلاب ﴿زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ وسخرهم في نفخ النار، وسخرهم في استحضار النحاس المذاب ليفرغ على الحديد المذاب.

وكما قلت في بداية الحديث عن الأزمات والرحمات في سورة الكهف أقول في هذه الأزمة لقد نطق ذو القرنين بذكر الرحمة التي حلت الأزمة، ونسب الرحمة إلى ربه لا إلى نفسه، وهذا ما يكشف عن إيمانه بالله تعالى والتزامه منهج الله تعالى:

﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾.

إن الأزمات المتنوعة في سورة الكهف تقدم للناس أفرادا وجماعات منافذ إلى رحمة الله من الأزمات التي يقعون فيها، وتجعلهم أكثر تبصراً بالأقدار التي تحل بهم، وتجعلهم أكثر إيجابية في الفهم وفي الحركة، ولعل ذلك بعض أهداف القراءة الدورية لسورة الكهف والله تعالى أعلم.


تدبر في القرآن

مطلع القرآن الكريم وخواتمه

من يتدبر القرآن الكريم تنكشف له فيه آيات بينات، ودلائل حكمة ربانية بالغة، ومن ذلك ما يلفت النظر في مطلع القرآن الكريم في سورة الفاتحة وخواتمه في السور الثلاث الأخيرة منه (المعوذات)، ولا يخفى أن للمطلع والختام خصوصية ودلالة، لأن المطلع هو أول ما يقابل القارئ ويعطيه الانطباع الأول، والختام هو الصوت الأخير الذي يبقى صداه في الأذن والعقل والقلب.

سورة الفاتحة:

لا يخفى أن الفاتحة هي السورة الأولى في كتاب الله، وهي أم الكتاب والسبع المثاني والقرآن العظيم،وهي أكثر سور القرآن تكرارا على الألسنة، فنحن نقرؤها في كل ركعة ونقرؤها في مناسبات مختلفة، والذي يتأملها يجد فيها آفاقا واسعة يطل منها على الدنيا والآخرة، والغيب والشهادة، والماضي والمستقبل، والهداية والضلال. ومن المهم أن نلتفت إلى دلالة كون الفاتحة أولى سور القرآن الكريم، فهذه السورة:

تعطيك ملخص الرؤية المطلوبة للكون والحياة، وهي رؤية متوازنة متكاملة، وتكشف لك حقيقة وجودك، وترسم لك الطريق الذي يوصلك من موقعك في الدنيا إلى منزلك في الآخرة، فلننظر في آياتها آية آية.

مما يلفت النظر في هذه السورة أنها لم تبدا بما بدأت به خواتيم القرآن من

فعل الأمر: ﴿قُلْ﴾ بل جاءت تعليما ربانيا مباشرا علمنا ربنا به كيف نحمده بما يليق بعظيم سلطانه فلا يعلم ما ينبغي له من حق الحمد إلا هو، ونحن مع سورة الفاتحة لسنا في موقف الحاجة والضعف الذي نحتاج معه إلى أن يقال لكل منا: ﴿قُلْ﴾ بل نحن في رحلة تأسيس التصور للوجود ابتداء مع القرآن الكريم فلا يتجلى ضعفنا في هذا الموقف بل تتجلى صفات ربنا سبحانه في مجالي الوجود كله فناسب الموقف أن يعلمنا هو ما نقول مباشرة من غير وساطة ﴿قُلْ﴾.

أول آية في سورة الفاتحة هي البسملة، وهي فيها آية، وهي مطلع في سور القرآن الأخرى باستثناء سورة التوبة.

ولا يخفى أن: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ شبه جملة تتعلق بمحذوف يقدر وفق الموقف الذي تقال فيه، وهنا في مطلع سورة الفاتحة نقدر فعلا هو: ﴿ٱقْرَأْ﴾، وانظر كيف اجتمع في البسملة ثلاثة من أسماء الله الحسنى: لفظ الجلالة: اسم العلم الدال على ربنا، وهو الاسم الخاص به ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾؟ واسمان يدلان على الرحمة: الرحمن الرحيم، وكم هو رائع هذا التجلي المنبعث من هذين الاسمين نحس به كلما رددنا البسملة في مطلع سورة الفاتحة ومطلع كل سورة وفي كل مرة نرددها في أي موقف من المواقف.

وإنك وأنت تقرأ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يفترض أن تستحضر في ذهنك عند الحمد، إن أطقت وكنت ممن يتدبر ما يقرأ، ولا يقرأ قراءة المتعجل،

يفترض أن تستحضر ما لله عليك من النعم التي لا تحصى، والتي تعلم بعضها وتجهل كثيرا منها، بل ما لله تعالى على عباده ومخلوقاته كلها، وكل مخلوقاته عبيد له، من النعم الظاهرة والباطنة، ما تجلى منها وما خفي، ما كان منها وما هو كائن، ليكون للحمد عندك رصيد تستحضره في مشهد الحمد، ولترى الكون بمخلوقاته ميدانا للرحمة الإلهية ترفل فيها الكائنات.

وتستحضر وأنت تقرأ: ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ ربوبية الله تعالى للعالمين، وتمضي في رحلة استحضار لعوالم لا حصر لها من الكائنات كلها في البر والبحر وفي جو السماء وفي باطن الأرض، في عالم الغيب وفي عالم الشهادة، في عالم الأحياء وعالم الجمادات.

وتستحضر ما للربوبية من تجليات الخلق والرزق والحكمة المتجلية في شكل كل مخلوق ومضمونه وغايته، وما بين المخلوقات من قوانين التكامل والتعاون والتسخير.

وقف لحظة واحدة وتفكر كم في تلك اللحظة التي أنت فيها من تجليات الخلق في ما يتكون من الكائنات التي لم تكن من قبل شيئا مذكورا، وكيف يعطي الله تعالى لكل منها صورته وخصائصه ووظيفته، ثم تأمل تجليات الربوبية بإمداد كل مخلوق بما يحتاجه من عوامل البقاء ليحقق غايته من رزق مقسوم إلى أجل معلوم.

وانظر في اللحظة نفسها كم يغادر الوجود من الكائنات التي أدت وظيفتها وانتهت مهمتها وآن لها أن تخلي المجال لما بعدها من أجيال الخلق

المتتابع وفق حكمة مقدرة.

وامض إن استطعت ولم تشغلك الشواغل، ولم يستفزك شيطان العجلة، مع تجليات الربوبية وأنت تقرأ: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ وإن ضاق بك المدى في مرة فكرر الرحلة وتابعها كلما قرأت الفاتحة. وانظر كيف ينفسح الوجود أمامك ويمتد إلى آفاق لا تكاد تحصر، في آيات كلها يدهش ويبهر.

وتقرأ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فتسترجع ما كنت فيه من رحلة مع ربوبية الله تعالى للعالمين، وترى آثار الرحمة المضاعفة في الوجود بتكرار اسمين من أسماء الله تعالى تفيض منهما الرحمة على المخلوقات بإيجادها:

فالخلق ابتداء رحمة، وأن يكون المخلوق على ما هو عليه من صفات رحمة إن لم يعرفها في نفسه عرفها في ما يقوم به لغيره.

وكل ما في الوجود من الخلق هو من تجليات رحمة الله تعالى بهذا الإنسان سيد الموجودات الذي خصه الله تعالى بخصائص ليست لغيره من الكائنات ولذلك سخر له ما في السماوات والأرض، فسخر له الشمس والقمر دائبين، وسخر له الليل والنهار، وسخر له الريح والبحر والجبال والأنهار، وأنزل له الماء من السماء، وأنبت له من التراب ما يذهل المتدبر من ألوان النبات.

ومن رحمته أن أعطاه القدرة على استثمار ما سخر له من الأشياء: فركب البحر في سفن تجلت رحمة الله تعالى بتعليمه صنعها، واستعمل ما سخر له من الحيوانات للركوب والحرث والطعام، ومن بعد اخترع بتعليم الله تعالى

ما نشاهده من وسائل المواصلات التي تمضي به سريعة إلى غاياته، بل طار في جو السماء، وها هو يمضي في آفاق الفضاء، وها هو يكتشف ألوان النعم ويستمتع بها.

وامض وأنت تقرأ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ مع آثار الرحمة المضاعفة في الوجود، وتذكر حكمة هذين الاسمين في سورة الفاتحة في قوله تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾، وتذكر الحديث القدسي: (إن رحمتي سبقت غضبي)، ولعلك وأنت تسعى إلى اكتشاف تجليات الرحمة في الوجود تستعيد رحلتك من قريب مع ربوبية الله تعالى للعالمين وتستمتع بالعودة إليها مرة أخرى بل مرة بعد مرة لتتكون لك النظرة المطلوبة إلى نفسك وإلى الوجود من حولك، ولتعرف ربك من تجليات أسمائه الحسنى.

إنك وأنت تمضي مع سورة الفاتحة بعد وقفة ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، والتدبر في آلاء ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ تجد نفسك وقد انتقلت من الدنيا وعالمها إلى عالم ﴿يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ وقد طويت الدنيا وما فيها ومن فيها وقام الناس لرب العالمين، وهذا المشهد الذي يرسمه قول الله تعالى ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ يكشف حقيقة الدنيا بأنها ليست دار مقام، وأنها سريعة الانقضاء، كسرعة ما بين قولك:

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وقراءتك ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، في هذا المشهد المتجلي يحس الإنسان بفقره وحاجته وعجزه، وأنه عبد لله تعالى

رب العالمين ومالك يوم الدين، ولذلك يعلن موقفه من ربه بإعلان عبوديته وعبادته لربه ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ويصرح بعجزه عن فعل شيء من غير عونه سبحانه فيرفع أكف الضراعة بلسان العبد المفتقر العاجز: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وتتراءى في المشهد الممتد من الدنيا إلى الآخرة مراتب العبودية وألوان العبادة التي تشمل كل مناحي الحياة، وتتجلى مسالك الناس في الأرض من مهتدين وغاوين، فيرتفع اللسان بالدعاء الذي يضمن النجاة يوم الدين بطلب الاستقامة في الدنيا على الصراط الذي يوصل إلى باب الجنة:

﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ والصراط هو منهج الحياة المستمد من كتاب الله تعالى الذي يضمن السعادة في الدنيا والآخرة، وهو صراط مأنوس مسلوك من قديم منذ وجد على الأرض إنسان سار فيه مَن ﴿أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ وانظر كيف يتجلى مشهد شامل للبشرية عبر عصورها في ختام سورة الفاتحة حيث يتجلى ركب البشرية في ثلاثة أصناف: الذين أنعم الله عليهم، والمغضوب عليهم، والضالين، ونحن هنا أمام صنف واحد ناج، وصنفين هالكين، والمغضوب عليهم هم: من تجلت لهم الآيات عيانا من غير التباس، مما كان يقتضي منهم الإيمان القطعي الذي لا تشوبه شائبة بل تقتضيه قرائن المعجزات، ولكنهم تعاموا عن ذلك كله فقالوا: ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ وقالوا: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا﴾ وقالوا: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ ومع ذلك كله يقولون في زعم موهوم: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾.

وأما الضالون فهم الذين التبس عليهم الحق فوقعوا في حيرة فلم ترق أذهانهم إلى رؤية تجليات آيات الله ومعجزاته التي أجراها على يد روح الله وكلمته فظنوا العبد ربا أو ابن الرب أو شريكا له في الملك، مع زعم الوحدة في التعدد والكثرة، وقالوا أقوالا ضلوا فيها عن إدراك الحق المبين الذي تجلى لهم وتاهوا في ضلالات الأوهام.

إن النظرة الشاملة في سورة الفاتحة التي هي مطلع القرآن الكريم وأكثر سوره تكرارا تضع بين أيدينا أصول الدين وحقائقه الكبرى:

من الإيمان بالله وصفاته، وتجلياتها في الوجود وفي حياة الإنسان، وفي بيان منزلة الإنسان في الوجود وفي البعث بعد الموت وفي رؤية مواقف الناس من الحق بين مؤمن وكافر.

ومن المهم لتتحقق الفائدة من قراءة الفاتحة وتكرارها الوقوف طويلا عند معانيها هذه وتدبرها.

فإذا انتقلنا إلى السور الثلاث التي ختم بها القرآن الكريم وجدنا أولاها وهي **سورة الإخلاص** تعالج قضية الألوهية ومواقف الناس منها وتقر في إيجاز بديع حقائق تشرح في مجلدات ببيان ما وقع فيها الضالون والمغضوب عليهم من متاهات في تصور حقيقة الألوهية، وتفتتح السورة بالأمر الرباني: ﴿قُلْ﴾ ليعلم أن هذا البيان ليس من عند رسول الله عليه وآله الصلاة والسلام بل هو أمر رباني ثم يأتي تقرير الحقيقة: ﴿هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فهو أحد لا يتجزأ وواحد لا يتعدد فلا ثاني له.

وبتقرير هذه الحقيقة ينتفي كل تصور لله تعالى يقوم على ما لا يليق بعظمته وجلاله. وما دام هو الأحد فهو الغني الذي لا يحتاج أحدا بل الخلق كلهم في حاجة إليه يطلبون منه بلسان الحال ولسان المقال حاجاتهم كلها وهذا معنى ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾ الذي تصمد إليه الكائنات بحاجاتها.

ويأتي بعد ذلك نفي معتقدات متوهمة نسبها البشر إلى الله سبحانه بنسبة الولد إليه فيأتي نفي الولد: ﴿ لَمْ يَلِدْ ﴾.

ويأتي نفي الوالد ﴿ وَلَمْ يُولَدْ ﴾.

لينتفي ذلك التصور اليوناني للآلهة الذين صوروا الآلهة في صورة عائلة فيها الذكور والإناث، وجعلوا لكل ظاهرة آلهة، وقل مثل ذلك في الآلهة المزعومة في أديان الشرق في الهند والصين وغيرهما.

فما دام ليس مولودا من والد، ولا والدا لولد، فهو كذلك لا شبيه له ولا ند ولا مثيل: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾.

وقد عالجت هذه السورة مواقف الناس التي وردت في سورة الفاتحة؛ الذين عبرت عنهم بالمغضوب عليهم والضالين، وكشفت لمن يملك العقل السوي والنظر العميق حقيقة الألوهية في إيجاز معجز تجد تفصيله في آيات كثيرة من كتاب الله.

وهكذا يستقر في عقل الإنسان وقلبه التصور الواضح الخالي من التعقيد لله تعالى.

وهكذا تقرر سورة الإخلاص حقيقة التوحيد التي تحدد وجهة الإنسان في الحياة حين يعرف ربه وإلهه سبحانه، وتأتي بعدها المعوذتان ترسمان للإنسان خريطة للشر الذي يلقاه في حياته وتبينان له أهم تلك الشرور، وتحددان له سبل الوقاية منها.

وكأن هاتين السورتين اللتين هما ختام القرآن تمثلان وصية مهمة للإنسان عليه ألا ينساها ليضمن لنفسه النجاة في الدنيا والآخرة، ولذلك جاء في مطلع كل منهما أمر تعليمي توجيهي هو: ﴿قُلْ﴾ وبدئت كل سورة ببيان أن الاستعاذة بالله تعالى بصفات محددة في السورة هي سبيل النجاة.

سورة الفلق:

في سورة الفلق أمر بالاستعاذة بالله ولكن ليس بلفظ الجلالة بل بـ ﴿بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ وهذا أمر يلفت النظر إلى فاعلية أسماء الله الحسنى وكيفية التعامل معها استجابة لأمر الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾.

ففي هذه السورة أمر بالاستعاذة بـ ﴿بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ والمستعاذ به في هذه السورة اسم واحد من أسماء الله الحسنى.

والمستعاذ منه أربعة شرور هي:

﴿شَرِّ مَا خَلَقَ﴾.

﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾.

﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴾ .

﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ .

فما علاقة ﴿بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ بهذه الأمور المستعاذ منها؟

أقرب الأقوال إلى فهمي بشأن الفلق هو المعنى العام للفلق لا المعنى الخاص، فالمعنى الخاص لدى كثير من المفسرين هو: الصبح، والمعنى العام هو: "كل ما انفلق من جميع ما خلق من الحيوان والصبح والحب والنوى وكل شيء من نبات وغيره"

وأقول إن المعنى العام أقرب لفهمي لأن ذلك يكشف لنا عن سر الاستعاذة بـ﴿بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ أي الذي له الهيمنة على كل ما ينفلق من صبح وحب ونوى، فأنت تستعيذ بالرب الذي خلق وله السيطرة على تلك المخلوقات ولا يقيك من شرها إلا هو.

ويلفت النظر أيضا في سياق السورة تكرار لفظة الشر مع الأمور الأربعة المستعاذ منها، فلم يكتف السياق بذكر الشر مع أول مستعاذ منه ثم يعطف ما لحق على ما سبق بل كرر لفظ ﴿شَرِّ﴾ أربع مرات، وفي هذا التكرار تأكيد لوجود الشرور وتنبيه عليها وبيان أهمية الاستعاذة منها.

الأمر الأول المستعاذ من شره هو: ﴿مَا خَلَقَ﴾ .

وهو تعبير يشمل عموم ما خلق الله تعالى من الكائنات التي لها بالإنسان صلة في عالم الأرض وفيها شر، وهو المعنى الأقرب وقد رأيت أن بعض

المفسرين ذهب في معنى ﴿شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ إلى اعتبار ﴿شَرِّ﴾ اسم تفضيل ولذلك ذهب إلى أن معنى ﴿شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ هو: إبليس أو النار، وهو معنى خاص وإن كان استفتاح الاستعاذات الأربعة بالمعنى العام أولى، والله أعلم.

والأمر الثاني المستعاذ من شره هو: ﴿غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾.

وتعددت أقوال المفسرين في الغاسق، ولعل أقرب المعاني هو الليل إذا دخل واستحكم ظلامه، والليل بوابة من بوابات الشر لدى كثير من الناس. ففي الليل تكون الموبقات والمنكرات في الملاهي والخمارات، وفيه تقع السرقات، وينطلق أهل الشرور المختلفة بين مدبر لليوم التالي، ومنفذ لشر خطط له من قبل، وفيه تنطلق كثير من الحشرات السامة أو المؤذية لتنشر شرها، وفي الاستعاذة من شر الليل استعاذة من كم كبير من الشر وأهله.

والمستعاذ منه هنا ظاهرة كونية تكون ميدانا للشر البشري.

والأمر الثالث المستعاذ من شره هو السحر الذي تصنعه: ﴿ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾.

ونسبة النفث في العقد إلى النساء يبدو أنه من باب التغليب وإلا فالرجال يتعاطون السحر كالنساء، إلا إذا فسرت ﴿ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ﴾ بالأرواح الخبيثة التي تصنع السحر سواء أكانت من الرجال أم النساء. ومن المشاهد والمعلوم قديما وحديثا أن من الناس من يلجؤون إلى السحرة ليقضوا أمورهم، ويحققوا مطالبهم في إيقاع الأذى بغيرهم، فالسحر باب عظيم من أبواب الشر ولذلك

جاء الأمر بالاستعاذة منه. والمستعاذ منه هنا عمل بشري من نفوس خبيثة.

والأمر الرابع المستعاذ من شره هو: ﴿حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾.

والحسد عمل نفسي لنفوس مريضة أنانية لا تحب الخير لغيرها بل تريد أن تستأثر به وحدها وأن يزول عن سواها.

هذه الأمور الأربعة المستعاذ بالله من شرها هي أصول الشر في حياة الناس ولذلك جاء التوجيه الرباني إلى المؤمنين بالتحصن بالله رب الفلق منها.

سورة الناس:

وفي سورة الناس التي هي ختام كتاب الله عز وجل يأتي الأسلوب نفسه بالبدء بـ ﴿قُلْ﴾.

وبالتوجيه إلى الاستعاذة من شر شيء واحد هو ﴿ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ أو شيطان الجن والإنس، وأقول: شيء واحد من حيث الصفة والعمل مع تعدد الشياطين من حيث الكثرة، وتنوعهم بين شياطين إنس وشياطين جن.

وإذا كان المستعاذ به في سورة الفلق هو ﴿بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ مع تعدد المستعاذ منه، فإن المستعاذ به في سورة الناس من أسماء الله تعالى متعدد فالسورة تأمرنا أن نستعيذ ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾، ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾.

وفي تكرار ذكر ﴿ٱلنَّاسِ﴾، وذكر الربوبية والملك والألوهية في هذا

السياق إشارة إلى خطر فعل الشياطين وإضلالهم للناس.

وإضافة رب وملك وإله إلى الناس إشارة كذلك إلى خطر شياطين الإنس الذين يبلغ الواحد منهم من إيقاع الشر ونشر السوء أكثر مما يبلغه شيطان الجن.

ولعل من مظاهر ذلك ما يكون في شهر رمضان من تصفيد مردة شياطين الجن ولكن شياطين الإنس ينوبون عنهم في ما يعجزون عنه.

اختتام القرآن الكريم بهاتين السورتين يمثل جرسَ إنذار وتنبيه للإنسان إلى ما في دنياه من الشرور وأسبابها وإلى ضرورة التحصن بالله منها، وحين نرجع إلى ما ورد من فضائل هاتين السورتين وأثرهما والدعوة إلى قراءتهما بعد الصلوات وعند النوم وفي أحوال شتى حينها ندرك بعض مقاصد ختم القرآن بهما، والله أعلم.

شخصية الرسول ﷺ وربانية القرآن

القرآن الكريم لا تنقضي عجائبه، ولا حد لآفاقه التي يحلق فيها المتدبرون، وهم معه كالساعي إلى الأفق: كلما ظن أنه وصل انفتحت أمامه آفاق. ذلك أنه الرسالة الخاتمة إلى الناس جميعا من ربهم عز وجل، ولا بد أن يتجلى لهم فيه بالتدبر والتفكر ما يدلهم على ربانية مصدره.

وأنا أدعو كل واحد منا وهو يتلو القرآن يقف وقفة تدبر للمحتوى والمنهج والرؤية التي تتجلى له فيه، وليسأل نفسه:

أليس في كل كتاب ما يدل على كاتبه؟

أليس ما يكتبه الإنسان ثمرة أمور منها: مستواه التعليمي والثقافي، وبيئته التي عاش فيها، والمستوى العلمي الذي بلغته البشرية في عصره، إن كان موضوعه عاما يتعلق بالكون والإنسان والحياة؟

لننظر في القرآن الكريم ولنتفحصه، هل نجد فيه ما يدل على أنه ثمرة جهد ذاتي من رسول الله ﷺ؟

هل نجده كتاب تأملات من مفكر أو عالم أو فيلسوف أو عبقري؟

وهل هو ثمرة العصر والبيئة اللذين عاش فيهما؟

ألا نرى أن كثيرا من آياته تبدأ بفعل الأمر: قل؟

وهذا يعني أن لهذا الكتاب مصدرا خارجا عن ذات الرسول ﷺ يأمره وهو يتلقى عنه، بل إننا نجد في القرآن الكريم في مواضع متعددة منه ما يمكن

أن نرى فيه بعض الحرج لكاتب أن يكتبه عن نفسه فيبقيه في كتاب يبلغه إلى الناس وينشره فيهم، والأمثلة على ذلك كثيرة، وهي في ما أرى توجيهات ومتابعات ربانية لأحوال نبينا عليه وآله الصلاة والسلام تظهر بها ألوهية منزل القرآن الكريم من جانب وبشرية الرسول عليه وآله الصلاة والسلام وكونه رسولا من جانب آخر، ولنتدبر هذه الأمثلة:

انظر هذا التوجيه الرباني لرسوله الكريم في علاقته بمن يدعوهم إلى الله ومن يستجيبون له:

﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢].

أيمكن أن يكون هذا الكلام من الرسول عليه وآله الصلاة والسلام؟.

ومثله ما ورد في سورة الكهف من توجيه تتجلى فيه الربوبية:

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

واقرأ هذه الآيات من سورة الإسراء وتيقن من مصدر هذا الكتاب المجيد العزيز، أيمكن للرسول ﷺ أن يقول عن نفسه:

﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا

لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ [الإسراء: ٧٣ - ٧٥].

وشبيه بهذا قوله تعالى عن الرسول الكريم عليه وآله الصلاة والسلام في سورة الحاقة: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٧].

واقرأ سورة الأحزاب وانظر في الآية الأولى منها:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ والآيتين ٣٧ و ٣٨: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٧ - ٣٨].

أيمكن أن يكون هذا الكلام والموقف الذي يصوره من إنشاء رسول الله ﷺ؟

واقرأ مطلع سورة التحريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ

أَزْوَاجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وامض مستطلعا صورة النبي ﷺ كما تتجلى في القرآن الكريم وسيقودك ذلك إلى يقين راسخ أن القرآن لا يمكن أن يكون إنشاء بشريا لمن نقله إلينا بل تنزيل من رب العالمين أنزله عليه، وفي القرآن الكريم جوانب مختلفة ترسخ في القلب هذا اليقين.

السادة والأتباع في القرآن الكريم

مما يلفت النظر في الأحداث الأخيرة في الوطن العربي في ما سمي عام الربيع العربي (٢٠١١) وما بعده، انفضاض كثير من الأتباع عن القادة العرب وتبرؤهم منهم وانحيازهم إلى الخيار الشعبي أو الثوري.

بل رأينا بعض من كانوا من رجال الصف الأول في الدولة الزائلة يظلون في مواقع متقدمة في الدولة التالية ولو إلى حين ويسهمون في الانتقام من العهد السابق وكأنهم لم يكونوا من رموزه وأركانه.

هذا حال الأتباع والمتبوعين في الدنيا فماذا عن حالهم يوم القيامة؟

حدثنا القرآن الكريم عن ذلك حديثا واضحا فيه الإنذار للأتباع الذين يضيعون دينهم ودنياهم في سبيل أهواء السادة الذين كانوا أتباعا لهم، وتنحل الروابط التي كانت بينهم، وينقلب الود إلى عداوة مستحكمة في شر مقام: في نار جهنم.

ولنقف على بعض ما أورده القرآن الكريم في ذلك:

ففي سورة البقرة مشهد يتحدث عن الفريقين: المؤمنين الذين يحبون الله تعالى حبا لا يعدله حب، والآخرين الذين يجعلون حب سادتهم وزعمائهم فوق حب الله؛ بما ينالونه منهم من حظوة ومتاع زائل ومنزلة دنيوية تغرهم وتسكرهم.

ولنستمع إلى حديث القرآن الكريم عنهما:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾[البقرة: ١٦٥ - ١٦٧].

إنه موقف تحذيري حين يتبرأ المتبوعون من الأتباع في أشد ما يكونون حاجة لهم. وكيف ينصرونهم وهم لا يستطيعون نصر أنفسهم؟

وانظر موقف الخيبة الذي يقع فيه الأتباع وما يتمنونه من عودة إلى الدنيا ليكون لهم موقف مغاير لما كان منهم من ولاء للسادة؟ وأنى لهم ذلك؟

وتحدثنا سورة الأحزاب عن أهل النار وموقف الأتباع من السادة حين يندمون على ترك متابعة الهدى المتمثل بطاعة الله ورسوله وأتباعهم أهواء السادة والزعماء الذي حادّوا الله ورسوله:

﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٦٦ - ٦٨].

إنه موقف الحسرة والندم يوم لا ينفع ذلك شيئا وموقف الكره الشديد لمن كانوا سبب غوايتهم من السادة والكبراء، والدعاء عليهم بالعذاب

المضاعف، وذلك لا يجديهم شيئا لأنهم جميعا في النار.

وانظر في الموقف الثالث الذي قصه علينا القرآن الكريم للسادة والأتباع وهم يترادّون القول في النار حيث لا ينفعهم ذلك إلا أن ينفّسوا عما في قلوبهم من غيظ، وذلك ليس بنافعهم شيئا ولا بمخفف عنهم العذاب:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٣١ - ٣٣].

إن هذه المواقف التي قصها علينا القرآن الكريم تشمل أصناف العلاقات المختلفة بين من لهم سلطة وسطوة ومن هم أتباع يمضون وراءهم على غير هدى وبينة. والنتيجة هي أنهم يكفر بعضهم ببعض ويلعن بعضهم بعضا، وإن تكن فائدة وعبرة لهذه المواقف التي قصها علينا القرآن الكريم فهي هنا في الدنيا فأما في الآخرة فقد فات فيها المجال للاعتبار وتغيير المواقف فهل من معتبر ينحاز إلى آخرته ويعمل لما فيه مصلحته الباقية؟


نظرات في آيات

أخطاء في الفهم

رصدت فيما سمعت من بعض أهل العلم والفهم أخطاء شائعة في فهم بعض آيات القرآن الكريم، وهي أخطاء منشؤوها العجلة في استنطاق الآية، وعدم الرجوع إلى كتب التفسير لتبيّن المعنى الصحيح، ومن دواعي الخطأ السذاجة في فهم النص.

ومن أمثلة السذاجة ما سمعته من أستاذ جامعي يروي عن نفسه وهو في مطلع الشباب أنه عندما كان يقرأ الآية الكريمة: ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾[الغاشية: ١٥] يتبادر إلى ذهنه المعنى العامي من كلمة مرق يمرق بمعنى مَرَّ يمرُّ، فكان يفهم من كلمة ونمارق: وأنا أمرُّ!!

وإذا كان هذا فهماً ساذجاً في مرحلة عمرية مبكرة فقد سمعت من عالم بلغ في العلم شاواً وفي العمر كبراً، وهو يفسر قوله تعالى:﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾[الفجر: ٦ - ٩] سمعته يفسر جابوا الصخر أي جاؤوا به، وهذا من تأثير الاستخدام العامي لكلمة «جاب» بمعنى أحضر، فكأنه فهم من كلمة جابوا: أي أحضروا الصخر إلى الواد!! ولو أن صاحبنا لم يركن إلى فهمه المتعجل ونظر في أي تفسير لوجد أن معنى جابوا: أي قطعوا صخر الجبال، ونحتوا بيوتاً بوادي القرى، وهم الذي قال الله تعالى فيها: ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا

ءَامِنِينَ ﴾ [الحجر: ٨٢].

ومن أمثلة الفهم المتعجل لدلالة بعض الآيات وهذا مما سمعته من أكثر من رجل ممن رجع من الحج، وعجبت أن سمعته من رجل من أهل الفضل والعلم بل هو أزهري قديم، في فهم قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠].. الفهم الشائع لدى كثير ممن يحجون لهذا النص الكريم هو أنهم يجدون من الحنين إلى الأهل والأولاد بعد قضاء المناسك شيئاً كثيراً، فكأنهم فهموا: اذكروا الله تعالى بعد قضاء المناسك كذكركم آباءكم أو أشد مما تذكرونهم، وفهموا الذكر هنا بمعنى الحنين.

ولو تأنوا في فهم النص ورجعوا إلى تفسير لكتاب الله لوجدوا ما يلي وهذا ما أنقله من صفوة التفاسير للصابوني:

«إذا فرغتم من أعمال الحج وانتهيتم منها فأكثروا ذكره، وبالغوا في ذلك كما كنتم تذكرون آباءكم وتعدون مفاخرهم بل أشد، قال المفسرون: كانوا يقفون بمنى بين المسجد والجبل بعد قضاء المناسك فيذكرون مفاخر آبائهم ومحاسن أيامهم، فأمروا أن يذكروا الله وحده».

إن ما أريد أن أنبه إليه أن من الخطأ أن يركن الإنسان منا في فهم كتاب الله ما يتبادر إلى ذهنه، أو إلى المعنى اللغوي دون النظر إلى السياق والمناسبة، ولا يكلفنا الأمر أكثر من نظر سريع في كتاب من كتب التفسير ولو كان مختصراً لتصل إلى الدلالة المطلوبة.

الحمد لله رب العالمين

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[الفاتحة: ٢] ثانية آية في أعظم سورة في كتاب الله، تتردد بها الألسنة كلما قرئت الفاتحة. وتتردد على الألسنة كلما لاحت للعين نعمة، أو دُفعت نقمة؛ بل إن الألسنة لتلهج بالحمد على كل حال، أو لسنا نسمع ذلك القول المشتهر: الحمد لله الذي لا يُحمد على مكروه سواه؟.

وتقف أمام هذه الآية العظيمة، من السورة العظيمة، في القرآن الكريم، تقف متفكراً متدبراً.

لماذا تقدم الحمد على لفظ الجلالة ولم تأت بصيغة: لله الحمد رب العالمين؟

ولماذا جاء الوصف لله سبحانه بصفة الربوبية للعالمين؟

حين يتعين الأمر ويتعدد الفاعلون له يقتضي التركيب اللغوي البليغ تقديم ذكر من وقع منه الأمر أو توجه إليه. وأما إذا كان الفاعل واحداً لا منازع له لا في الحقيقة ولا في التوهم فتقديم الأمر أولى وأبلغ.

ونحن حين نقول: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ حين نقولها حقيقة لا اعتياداً، ونقولها تفكراً وتدبراً لا تكراراً لا يجاوز السطح، ولا يخترق القشور، حين نقولها على ما ينبغي منن حال ينبغي أن نستحضر شهود كل ما يقتضي الحمد، من نعم لا تكاد تحصى، في النفس والأهل، والمال والبدن.

ونستحضر ذلك التعليم النبوي الكريم لنا في الصباح والماء: «اللهم ما

أصبح/ أمسى، بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك فلك الحمد ولك الشكر».

وحين تصل إليك نعمة أو تدفع عنك نقمة، فحقيقة التوحيد تقتضي ألاّ تحجبك «الواسطة» عن صاحب الفضل.

فما الناس والأشياء من حولك إلا أدوات في يد القدرة الإلهية يجري النعم من خلالها، أو يدفع النقم بها.

ألا ترى أن ربك المنعم لو شاء لجعل السماء تمطراً عليك ما تحتاج إليه من طعام ولباس ومن سائر الحاجات؟ لكنه سبحانه، بقدرته وحكمته شاء أن يجعل لذلك أدوات تقتضي التفكر والتدبر، لتدرك تجليات أسمائه، وترى عجيب صنعه، فسخر لك أنواع النبات والشجر لتنتج لك ما تحتاجه من طعام، واذهب إن شئت إلى سوق الخضروات والفواكه إن عجزت عن الذهاب إلى البساتين والحدائق ذات البهجة، وانظر في أنواع الثمرات والنباتات التي ترى مما يطيب لك النظر في بديع صنعه، ويروق لك التمتع بلذيذ طعمه، ثم اسأل نفسك: من صنع هذا؟ أترى شجرة البرتقال أو التفاح نصنع لك ثمراتها أم أنها أداة من أدوات القدرة تبرز لك من الآيات ما يستحق التفكر والتدبر لا الغفلة والإعراض، ويستدعي أن يلهج اللسان حين ينظر إلى الثمر ويتذوقه بقول: الحمد لله رب العالمين.

فالحمد كله، لله رب العالمين، والحمد أوله وآخره، وعلى كل حال، وفي كل نعمة تتقلب فيها، وعند كل وقمة أو سوء يُدفع عنك، كل ذلك لله رب العالمين وحده لا شريك له في ملكه وقدرته وفي الحمد المطلق الذي لا ينبغي إلا له.

ونقف عند قوله سبحانه في هذه الآية التي علمنا بها كيف نحمده حتى يكون حمدنا له لائقاً بجلاله وكماله، قوله ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ نسأل: لماذا لم يقتصر التعبير على لفظ الجلالة وحده بقول: «الحمد لله»؟

ولماذا جاء لفظ الربوبية مضافاً إلى العالمين؟

إن في ذكر لفظ الربوبية استحضاراً لهذه النعم الدائمة التي لا تنقطع لا عنك وحدك، وأنت من تحرك لسانك بالحمد، بل تمتد إلى العالمين. وفي ارتقاء القلب إلى هذا المشهد الراقي الممتد طولاً وعرضاً بل في كل اتجاه فيه عالم من العالمين ما يجعلك تستشعر حقيقة الحمد لهذا الرب الذي لا يغرب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، بل لا تنقطع نعمه عن عالم من العوالم، نعمة الخلق، ونعمة الرزق ونعمة التسخير، ونعمة الهداية إلى ما خلق من أجله.

وهل تملك وأنت تستشرف هذه العوالم التي يربُّها الله بنعمه وقيوميته إلا أن نقول: الحمد لله رب العالمين؟

ثم إنك وأنت تحمد الله رب العالمين تستشرف أفقاً من آفاق النعمة التي تستحق الحمد، ذلك الأفق هو أن ربك الذي تحمده قد سخّر لك هذه العوالم التي تستحضرها في مشهد الحمد، أو ليس ما في السماوات والأرض مسخراً لك؟ وارحل بخيالك إن شئت مع الشمس والنجوم والكواكب والتوابع، أو ليست مسخرة لك؟ وارحل مع الكائنات الحية حيوانها ونباتها أو ليست في خدمتك؟ واستحضر الجمادات وما فيها من خصائص أو لم تخلق لك؟

إنك وأنت تتدبر هذا التعبير المكتنز بالآيات التي تتجلى بشيء من التفكر والتدبر وجلاء مرآة القلب لتنعكس عليها العوالم، وتتجلى فيها النعم، إنك عند ذلك تدرك بعض ما في هذا التعبير الرباني الذي علمه لنا من الأسرار، فيظل لسانك يردد ويردد: «الحمد لله رب العالمين».

ويعلم ما في الأرحام

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ [لقمان: ٣٤].

هذه الآية تضمنت ما ورد في القرآن الكريم أنه مفاتح الغيب ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله- وأورد الآية التي افتتحت بها هذا المقال.

وإذا وقفنا مع هذه المفاتيح وقفة تدبر وجدنا أن علم الساعة مما استأثر الله تعالى به، وهو أمر لا يمكن لأحد أن يتنبأ به.

والله تعالى هو الذي ينزل الغيث، وقد أشكل أمر هذا المفتاح من مفاتيح الغيب على بعض من رأى أهل زماننا ينزلون «المطر الصناعي» وتساءلوا عن ذلك، والجواب والله أعلم يكون بالوقوف على كلمة «الغيث» بالمطر هو الذي يوقع في الأشكال، ذلك أن مما ينزل من السماء وتجري به الريح من السحاب ما يكون مطراً نافعاً ينفع البلاد والعباد، وذلك ما يُسمى غيثاً لأنه يغيث الناس من العطش والقحط، وأما إذا كان المطر غزيراً يؤدي إلى طوفان وغرق فإنه لا يكون غيثاً بل يكون عقوبة وعذاباً. والفارق بينهما أن الغيث

يكون بمقدار يتحقق به النفع على من ينزل عليهم، «ونزلنا من السماء ماء بقدر» ولذلك جاء في آية كريمة الحديث عن حال الناس عند تأخر المطر بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾ [الشورى: ٢٨].

فما يقال عن المطر الصناعي، وهو أقرب إلى التجارب منه إلى أن يكون وسيلة استمطار صالحة دائمة، لا يقع ضمن مفهوم الغيث لأن المطر الصناعي قد يكون دون الحاجة أو أكثر منها، كما يخفي أنه يتم برش مواد كيماوية على الغيوم لتمطر وفي هذه المواد ما فيها من الآثار الجانبية التي لا تجعل هذا المطر الصناعي «غيثاً».

ونقف عند المفتاح الثالث من مفاتيح الغيث وهو علم من الأرحام. ولا أدري من أين فهم المفسرون أن معنى قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ يعني من ذكر أو أنثى أو شقي أو سعيد أو أحمر أو أسود.. وهو فهم بعيد عن التأمل في تركيب النص ، ولم يربط هذا النص بنصوص أخرى ذات صلة به.

فالنص يقول ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ ولنتنبه إلى صيغة الجمع في الأرحام ودلالة النص: أن الله تعالى يعلم ما في الأرحام كلها، ومفاتيح الغيب هنا شمول علم الله تعالى لما في الأرحام كلها من كائنات تتخلق على اختلاف أجناسها وألوانها وهذا أمر لا يستطيع أحد أن يزعم أنه يعلمه، فقد يستطيع طبيب أن يعلم جس جنين في رحم امرأة لكنه لا يزعم علم ما في أرحام النساء أو الأبقار أو النوق أو كل ذات رحم.

ويؤدي هذا المعنى الذي أذهب إليه أية أخرى هي قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ

مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ [الرعد: ٨] وهذه الآية مفسرة تفسيراً واضحاً لمفاتيح الغيب وهو شمول العلم بما تحمل كل أنثى.

وبهذا الفهم يزول إشكال كان يسبب حرجاً لبعض الأطباء حين يسألهم الزوج أو المرأة الحامل عن جنس الجنين فيتردد حتى لا يشارك الله تعالى في علمه وفق الفهم الشائع لهذا المفتاح.

ويظل المفتاحان الرابع والخامس مما تفرد الله بعلمه فلا تدري نفس ماذا تكسب غداً ولا تدري نفس أين يكون حتفها، وفي ذلك من العجائب والغرائب ما يجعل الإنسان يقف عاجزاً مستسلماً أمام قضاء الله تعالى وقدره.

أنا آتيك به

المعجزة أو الكرامة هي أمر خارق للعادة، فيكون للنبي برهان نبوة، ودليل صدق في الرسالة، ويكون للعبد الصالح إعلاماً من الله تعالى بصلاحه ويرضى الله عنه، مع الإشارة إلى أن المعجزة تظل باقية ما كانت الحاجة إليها، وإن الكرامة أمر عارض لا يتحكم العبد الصالح به.

وكثير من المعجزات أو الكرامات التي تجري على أيدي عباد الله المصطفين والصالحين قد يتحقق للناس من بعد بما يفتح الله تعالى عليهم من علم، في صورة من الصور، قد لا تكون موافقة كل الموافقة للمعجزة أو الكرامة، لكنها تكون من جنسها.

واضرب لذلك أمثلة، ومنها: ما كان مع نبي الله سليمان حين طلب من جلسائه أن يأتوه بعرش ملكة سبأ، ولنقرأ النص القرآني ثم لنا من بعد تعقيب واستنتاج:

﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ .....﴾ [النمل: ٣٨ - ٤٠].

القضية التي يشير إليها هذا النص القرآني هي «النقل السريع» الذي يأتي بالشيء من مكان بعيد في وقت قصير، وذلك ما تحقق في خبر سليمان عليه السلام بقوة خارقة، وهذا ما نراه في زماننا يتحقق بالوسائل الحديثة للنقل

وبخاصة الطائرات، فما كان يستغرق إحضاره أشهراً يحضر في زماننا في سويعات.

ومن الباب نفسه ما كان من إعجاز في إسراء النبي محمد ﷺ، فقد كان الإسراء ومعه المعراج في جزء من ليلة، ولما أخبر النبي ﷺ قريشاً بما كان من إسرائه إلى بيت المقدس كان أول اعتراض لهم مبنياً على التعجب من المكان البعيد الذي يستغرق شهراً في الرواح وشهراً في العودة قطعه في ليلة واحدة، ونحن نؤمن أن ما أخبر عنه الرسول ﷺ من وسيلة النقل التي استخدمها في الإسراء أمر خارق للعادة «البراق» أمام فكرة هي: قطع المكان البعيد في زمن قصير، وذلك الأمر كان حلماً إنسانياً عبر مسيرة البشرية، فسخر الإنسان ما تيسر له من الوسائل التي سخرها له الله تعالى في البر والبحر، وها نحن نرى في زماننا ما فتح الله به على البشر من وسائل النقل التي لم تخطر بالبال فصار ما كان يستغرق أشهراً يقطعه الإنسان في ساعات، وها هي الطائرات عابرة القارات تقرب البعيد، وتجعل ما كان مستهجناً مستنكراً مستغرباً من أمر المعجزات لدى من كذب بها أمراً قريباً لا شك فيه في زمن السرعة ووسائل النقل الحديث.

وحتى لا تذهب بعض القراء الظنون إلى غير ما أردت أقول: إن مكتشفات العلم ومخترعاته وسيلة من الوسائل التي تقرب ما كان من قبل غريباً وتجعله أقرب إلى الفهم وأدنى إلى التصديق، والمعجزات والكرامات وفتوح العلم كل ذلك من فضل الله الرحمن الذي علم الإنسان ما لم يعلم وأفاض عليه من النعم التي لا تحصى.

سنريهم آياتنا

كتاب الله القرآن الكريم هو الرسالة التي أنزلها سبحان على نبيه محمد عليه وآله الصلاة والسلام، وهو المعجزة الدالة على صدق نوبته، وهذان الأمران لم يتوافرا لما سبق من كتب الله المنزلة على أنبيائه، ذلك أن كل نبي كان ينزل عليه رسالة ويؤتيه الله سبحانه معجزة أو أكثر دالة على صدق نبوته، ومن الأمثلة الدالة على هذه الفكرة أن موسى عليه السلام أوتي كتاباً هو التوراة ومعجزات هي العصا واليد وغيرهما، فالتوراة ليست كتاباً معجزاً.

ومثل ذلك الإنجيل المنزل من الله تعالى على نبيه عيسى عليه السلام، فهو ليس كتاباً معجزاً، لأن معجزات المسيح عليه السلام كانت في إحياء الموتى وشفاء المرضى وغير ذلك.

وقد كانت للقرآن هاتان الصفتان: الرسالة والمعجزة لأن القرآن الكريم هو الرسالة الخاتمة الباقية الممتدة إلى قيام الساعة، ولا بد أن تقوم الحجة بها على الناس الذين تصلهم من غير لحق بالرفيق الأعلى بعد أن أكمل الله الدين وأتم النعمة ورضي الإسلام ديناً لعباده.

وكون القرآن الكريم رسالة ومعجزة يقتضي حتى تقوم الحجة به على الناس بأن يتجلى فيه من البراهين والأدلة التي تنكشف للمخاطبين به ما تقوم به عليهم الحجة أن هذا القرآن هو كلام الله تعالى وليس من عند محمد صلى الله عليه وسلم، ولا من كلام البشر، يستوي في تجلي البراهين الأمي والعالم على اختلاف درجات هذا التجلي، لأنه معلوم أن الحجة لا تقوم حتى يرد البرهان.

وهذا يعني أن للقرآن الكريم وجوها في الإعجاز الدال على أنه من عند الله، انكشف منها وجه للعرب حين نزول القرآن فآمن من آمن، واستكبر من استكبر، وراوغ من راوغ فقال عن النبي ﷺ مصنفاً له وفق ما يعلم من أصحاب القدرات في بيئته: أنه شاعر أو كاهن أو ساحر أو مجنون «أي ذو صلة بالجن».

ثم لما انطلق المسلمون بالرسالة يبلغونها أهل الأرض على اختلاف ألسنتهم قامت الحجة عليهم بما انكشف لهم في كتاب الله وتبينوا أن القرآن كلام الله، سواء منهم من تعلم العربية وصار كأنه من أهلها، ومن لم يتعلمها، وإن من التعسف الذي لا يعقل أن يقال للناس: إنكم لن تدركوا أن هذا القرآن كلام الله، ولن تتبينوا إعجاز هذا القرآن حتى تتعلموا العربية، وهذا الأمر يخالفه الواقع والتاريخ، وكم من مسلم آمن بالله ورسوله وبقي على لغته، وإن طوع لسانه لكلام الله يتلوه في صلواته وحين يقرأ القرآن.

ولعل مما يدل على ما أقول من وجوه الإعجاز المتعددة التي تنكشف لكل إنسان ولأهل كل زمان ليعلموا أن القرآن الكريم كلام الله، قوله سبحانه في ختام سورة فصلت: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴾ [فُصِّلَت: ٥٢ - ٥٤].

إني جاعل في الأرض خليفة

من الآيات التي وقع فيها خلاف بين المفسرين قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] وقد أورد المفسرون في دلالة كلمة خليفة آراء منها:

الأول: أنه آدم عليه السلام ومن قام مقامه في طاعة الله والحكم بالعدل بين الناس.

الثاني: إنهم بنو آدم الذين يخلف بعضهم بعضاً قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل، واستدل أصحاب هذا الرأي بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥] وقوله: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢].

الثالث: أنهم بنو آدم وكانوا خلفاء للجن الذين كانوا أول من سكن الأرض فأفسدوا فيها وسفكوا الدماء وقتل بعضهم بعضاً، فبعث الله جنداً من الملائكة ضربوهم حتى ألحقوهم بجزائر البحور. واستدل أصحاب هذا الرأي بما قاله الملائكة تعقيباً على أخبار هذا الرأي بما قاله للملائكة تعقيباً على أخبار الله تعالى لهم بجعل خليفة في الأرض ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ...﴾ [البقرة: ٣٠] وهذا القول إنما كان بناء على تجربة سابقة لمخلوقات عمرت الأرض فأفسدت وسفكت الدماء.

وقد شاع لدى المفسرين والمتحدثين في زماننا الرأي القائل بأن الإنسان

خليفة الله في الأرض، وهذا المعنى على إطلاقه فيه نظر، فالخليفة ينوب عن المستخلف في أمر أو أمور، وينبغي أن يكون موافقاً فيما يفعله لمن استخلفه، والإنسان أو بنو آدم ليسوا كلهم على منهج الاستقامة، يشهد على ذلك حالهم بعد رسالة محمد ﷺ فهل يسمى الإنسان خليفة عن الله في الأرض في حال هدايته وضلاله وعدله وجوره؟

ولعلي أميل إلى الرأي الثالث الذي ورد آنفاً مع شيء من التعديل، فالإنسان خليفة لمخلوقات كانت على هذه الأرض، وكانت عاقلة قادرة، خلقها الله تعالى في الأرض لتعمرها فكان منها الإفساد وسفك الدماء كما شهدت بذلك الملائكة وخشيت أن يكون من ذرية آدم مثلها. ويبدو أن هذه المخلوقات قد انقرضت بعقوبة ربانية، ويشهد على ذلك مكتشفات العلماء في الأرض أن هناك كثيراً من المخلوقات قد انقرضت ووجد العلماء هياكلها العظمية كالديناصور وكذلك ما اكتشفه العلماء من هياكل لمخلوقات شبيهة بالإنسان وما ورد في كتاب الله القرآن والكتب المنزلة من قبل لم تذكر شيئاً عن عمر الإنسان على هذه الأرض، ولا يتصور أن وجوده عليها يمتد ملايين السنين.

وهذا الفهم يحل إشكالات تتعلق بقول الملائكة في حق آدم عند خلقه كما يحل إشكالات تتعلق بوجود الحياة على الأرض.. والله أعلم.

حتى نبعث رسولا

تشيع بعض الأفكار ويتناقلها المتحدثون والباحثون واحداً عن الآخر من غير أن يتنبه إلى ما فيها من أمر يحتاج إلى تثبت، أو توقف أو إعادة نظر.

ومن هذه الأفكار التي شاعت تصوير أن بلاد الجزيرة العربية والعراق والشام ومصر هي أرض النبوات فحسب وأن ما سواها من بقاع الأرض لم تعرف النبوة والأنبياء.

والذين يشيعون هذه الفكرة إنما ينطلقون من النظر إلى جغرافية حركة النبوة المذكورة في القرآن الكريم، فمن عهد نوح A ومن تلاه من أنبياء نجد أنهم يتحركون في الجزيرة العربية في الأحقاف ومدائن صالح «الحجر» وفي العراق «أور» منطلق سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام» وفي جانب من تركيا وفي بلاد الشام في الخليل والغور «أرض قوم لوط» وأرض يعقوب الذي انتقل هو وذريته من بعد ليلحقوا بيوسف في مصر، ثم ما كان من موسى A في مصر وفي أرض مدين ثم في أرض التيه، وما كان من بعد من حركة النبوة في جنوبي بلاد الشام ثم كان قبل ختامها في الجزيرة ظهور المسيح في أرض بيت المقدس.

هذه الصورة المجملة تحصر حركة النبوة والأنبياء في مساحة محدودة وللبشرية وجود ممتد وراء هذه الأرض، أفكان البشر في البقاع الأخرى محرومين من نور الرسالة، وكانوا في منأى عن الوحي الرباني؟ نصوص القرآن الكريم تنفي فكرة حصر النبوة في بقعة محددة، لأنه لا بد أن تقوم الحجة على

الناس بالنبوة والرسالة، لأنهم سيسألون يوم القيامة عما عملوا في الأرض، وعن عمارتهم لها، وعن كفرهم وإيمانهم، واستقامتهم وانحرافهم، فكيف يسألون وهم لم يأتهم نذير وبشير؟

الله تعالى في كتابه وضح هذا الأمر بأن الأنبياء الذين ذكروا في كتابه ليسوا كل الأنبياء، ففي سورة النساء بعد أن ذكر الله تعالى عدداً من أسماء رسله وأنبيائه قال: ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٤ - ١٦٥].

أرأيت ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ ﴾ فلا حجة إلا برسول، ومدلول هذه الآية أن كل أمة من الأمم جاءها رسول يقيم عليها الحجة وتكرر هذا المعنى في سورة غافر في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ ﴾ [غافر: ٧٨].

بل ما لنا نذهب مذهب الاستنتاج من نصوص واضحة وبين يدينا من نصوص القرآن الكريم ما ينطق بما نريد من غير استنتاج؟

يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر: ٢٤].

أليس هذا أيضاً في أن كل أمة على هذه الأرض جاءها رسول؟ ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر: ٢٤].

إن التدين ومعرفة الله تعالى واعتقاد حياة بعد الموت وفكرة الحساب هي مما انتشر بين البشر كلهم، وهذا يدل على أنهم جاءتهم رسلهم بالبينات، وكثير منهم حرف ما جاءه فجعل النبي إلهاً أو أعطاه بعض صفات الإلوهية، ورفعوا لهم أصناماً عبدوها من دون الله.

لقد جمع الله تعالى لرسوله الخاتم محمد ﷺ ما تفرق لدى الأنبياء السابقين، وجاء ليقوم بما قاموا به من قبل أو سعوا إليه من تعريف الناس بربهم وبيان منهج الحق لهم، فكانت رسالته شاملة عامة تامة ممتدة زماناً ومكاناً رسولاً إلى العالمين رسول بعده إلى يوم الدين، وفي رسالته من عوامل البقاء وتلبية حاجة البشر ما يكفي البشرية ويرافقها وهي ترتقي في درجات العلم وتستكشف آفاق هذا الكون.

الإفك

الإفك صرف للشيء عن وجهه الأصلي، ففي الإفك تزوير وتحوير، وفيه إدعاء أشياء لا أصل لها.

وقد وردت مشتقات هذا الأصل في القرآن الكريم في صيغ مختلفة، فقد وصفت قرى قوم لوط بالمؤتفكة والمؤتفكات:

﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾[النجم: ٥٣].. ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ﴾ [الحاقة: ٩] ولعلها سميت بهذا الاسم – والله أعلم- لأنها انحرفت عن فطرة أهلها، فصرفت موضع الشهرة عما أحل الله إلى ما حرم من شذوذ.

والإفك: بالفتح الصرف، ولذلك قال قوم عاد لنبيهم:﴿أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ [الأحقاف: ٢٢].

والأفاك: من صار صرف الكلام عن وجهه منهجاً له، فهو يتعمد تحوير الكلام وإشاعة الكذب.

وقد سمى القرآن الكريم تلك الحادثة الشهيرة التي ولغ فيها المنافقون في عرض السيدة عائشة رضي الله عنها بالإفك، وذلك لأن هناك أمراً قد وقع لكن روايته صرفته عن وجهه إلى وجه آخر شابه الكذب.

فقد تأخرت السيدة عائشة رضي الله عنها عن الركب في إحدى غزوات النبي ﷺ حين افتقدت عقداً لها بعد قضاء حاجتها بعيداً عن موضع الجيش،

ورجعت تلتمسه، فجاء الذين يحملون الهودج حين أمر النبي ﷺ برحيل الجيش فحملوه، ولم يدركون أنها ليست فيه، لأنها كانت خفيفة الوزن، ورجعت السيدة عائشة رضي الله عنها إلى موضع الجيش فوجدته قد رحل، فجلست في مكانها لعلهم يفقدونها فيرجعون لأخذها، وكان أحد الصحابة وهو صفوان بن المعطل السلمي قد تأخر عن الجيش، ولما أصبح الصبح وجد السيدة عائشة رضي الله عنها قد غلبها النوم، فاسترجع لما رأى من حالها، وعجب لانفرادها فاستيقظت على صوته، وخمّرت وجهها، ولم يكلمها ولم تكلمه، فأناخ لها راحلته، فركبت وانطلق بها حتى وصلا الجيش.

هذا الموقف بهذا التفصيل أثار شهية المنافقين الذين ألفوا حوله رواية، ونسجوا حكاية: أرأيت؟ لماذا تأخرت عائشة؟ وما علاقتها بصفوان؟ وبدأت كرة الثلج تكبر، وبدأ الإفك يتجلى على الألسنة، فكان صرف الحديث عن ظاهرة «إفكا» لأنه ليس رواية للأمر على وجهه بل تحوير له، وإضافة ما لم يكن إلى ما كان.

وحادثة الإفك علامة من علامات النبوة، إذ لو كان القرآن من عند رسول الله عليه وآله الصلاة والسلام لكان من اليسير اختراع سورة ببراءتها، أو إلصاق التهمة بها والتخلص منها، لكن الأمر بقي شهراً. والمدينة يتردد فيها صدى الكلام الذي انتفكه المنافقون، وتلقفته ألسنة المؤمنين، ورسول الله ﷺ في محنة، وزوجته أم المؤمنين رضي الله عنها في محنة، وأبوها الصديق رضي الله عنه في محنة، إنها محنة لم تكن محنة أسرة بل محنة مجتمع، وبعد شهر يتنزل القرآن ببراءة السيدة الطاهرة، ويضع للمسلمين معالم التعامل مع الإفك.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِيٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١١].

فتسمية الحديث بالإفك بيان لكذبه، والذين جاؤوا به من «مواطني المجتمع الإسلامي، والذين اخترعوه أثموا، والذين ترددت ألسنتهم به أثموا، والخير الذي فيه هو ما نتج عنه من بيان لمنهج التعامل بين المسلمين في الحالات المشابهة، كما فيه براءة من الإثم للسيدة الطاهرة المطهرة رضي الله عنها.

ولذلك جاءت الضوابط التي ينبغي أن تتقيد بها الألسنة:

﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢]. فالأصل ظن الخير في المؤمنين والمؤمنات لا ظن السوء، والتبين قبل الكلام: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٣ - ١٦].

وهذا ضابط مهم للألسنة فكيف يتكلم الإنسان بما لا يعلم؟ وكيف يبيح لنفسه أن يطلق فرية عظيمة لا دليل له عليها؟ إنه البهتان العظيم والافتراء الشنيع.

والأصل في المجتمع الإسلامي أن يكون نظيفاً من الفاحشة، بريئاً من شيوعها في الواقع أو شيوع ذكرها على الألسنة وأن يكون من الناس صنف يحبون أن تشيع الفاحشة، أولئك لهم مصير دنيوي وعاقبة أخروية.... ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].

ويظل الإفك دوامة تضرب ألسنة الناس وعقولهم وقلوبهم عبر العصور وفي مختلف المجتمعات، يبوء بإثمها من يطلقها ومن يتلقفها، وينجو منها من يقول: ﴿مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ [النور: ١٦].

المنّ والأذى

الإنفاق في سبيل الله متعة تلتذّ بها نفوس المؤمنين كما تلتذّ نفوس أصحاب الهوى بمتعهم بل هم أشد من ذلك.

لأن المؤمن وهو ينفق يحس بمجموعة من النعم: أولاها نعمة الله عليه بأن أعطاه وجعله قادراً على العطاء، وجعل يده هي العليا، وثانيتها: أن حرره من شح النفس، وتعلقها بالمال تعلقاً يجعلها في موقع العبودية له، وثالثتها: أنه يفرّج بما يعطيه كربة مكروب، ويفرح بما يعطي القلوب، هل من متعة أكبر من أن ترى صاحب حاجة وقد لبيت له حاجته فلهج لسانه بالشكر والدعاء؟ وهل من متعة أكبر من فرحة تراها في وجه ذي رحم وقد وصلته ببعض ما من الله به عليك؟

هذا الإنفاق في سبيل الله قد يشوبه بعض الشوائب التي هي كالطين الذي يخالط الماء الزلال فيعكره، هذه الشوائب قد تكون من النفس التي لم تتخلص من الشح كله، أو التي لم تتحرر من وساس الشيطان الذي يخوف الإنسان من الفقر أو ينفخ في رأسه أنه أعطى وأنعم وتفضل، فيصدر عن المعطي من القول أو الفعل ما يكون سبباً في إيذاء من أعطى، فينغص عليه فرحته، أو يشوب الخير ببعض التفضل أو الكبر!!

ذلك ما جاءت آيات كريمة في سورة البقرة لتخلص نفوس المؤمنين فيه، لتصور لهم عظم الأجر الذي ينتظرهم وهم ينفقون في سبيل الله في هذه الصورة الرائعة ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ

سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦١].

ومن الذين يستحقون الأجر العظيم المضاعف أنهم: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٢٦٢].

ما أعظمك يا رب تريد من عبادك المنفقين أن يراعوا مشاعر إخوانهم من ذوي الحاجات الذين سخرتهم لقضاء حاجاتهم، وما أعظمه من زجر للنفوس عن المن والأذى: ﴿ ۞ قَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ وَمَغۡفِرَةٌ خَيۡرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتۡبَعُهَآ أَذٗىۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٞ ﴾ [البقرة: ٢٦٣].

وما عاقبة المن والأذى؟ هل يبقى معها أجر مضاعف؟

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

فيا أيها الأيدي المنفقة في سبيل الله كفّي أذى النفس ومنّها واحفظي أجرك من أن يحبطه ما لا يغني عنك من كبر يرديك ويجعل عملك هباء منثورا.

كل نفس ذائقة الموت

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾ حكم بالإعدام على كل نفس.

ورد هذا النص في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٧].

الإنسان والموت حكاية ممتدة منذ وجد الإنسان على الأرض فللإنسان بداية بالميلاد ونهاية بالموت، وبعدها يصبح كأن لم يكن من التراب خلق وإلى التراب يعود.

وموقف الإنسان من الموت يثير العجب، فمن الناس من تجد لديه صدمة الموت مع كل حالة وفاة، كأنها المرة الأولى التي يموت فيها ميت، وتلك علامة غفلة، وانشغال باللحظة عن الماضي وعن الآتي.

ومن الناس من يدفعه الموت إلى الإقبال على متع الحياة واستغلال الفرصة المتاحة له شعاره:

تمتـــع مـــن شمـــيم عـــرار نجـــد فمـــا بعـــد العشـــية مـــن عـــرار

هذا النصف من الناس يؤمن بالحياة التي هو فيها وعنده أفكار أو شك بما بعدها، فهو لا عاجل بآجل، ولا يستيقن من أمر الغيب، ولذلك نجده دنيوياً حتى النخاع.

ومن الناس من يولد الموت لديه حالة سوداوية، وينظر إلى الحياة نظرة تشاؤم يستذكر قول الشاعر:

لدوا للموت أبنوا للخراب.

وقوله: فكل الذي فوق التراب تراب.

ولذلك نجده ينزوي ويقبل على القليل مما يتيح له البقاء ويمضي حياته في زهد وإعراض عن الحياة.

والموقف الأسلم من الموت هو أن يعرف الإنسان غاية وجوده وألا ينشغل بشيء عن شيء. الموقف الأسلم أن يعلم الإنسان أنه وجد في الأرض لعبادة الله، ولعمارة الأرض واستثمار ما سخره الله له، لتتكشف له بدائع الكون، وآيات الله، وهو في ذلك كله عابد لله في مزرعته ومصنعه ومكتبه، وهو يستذكر قول النبي ﷺ: «إذا قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فاستطاع أن يغرسها فليغرسها فإن له بها أجراً».

ولو رجعنا إلى الآيات التي استفتحنا بها لوجدناها توحي بهذا المعنى وتدل على الموقف.

فالآية الأولى: تتحدث عن توفية الأجور يوم القيامة، والأجور المرتبطة

بالعمل، والعمل ليس صلاة وصياماً فحسب، بل هو زكاة وجهاد وتجارة وزراعة وصناعة أي هو عمارة للأرض باسم الله، كل ذلك العمل مرتبط بالآخرة والزحزحة عن النار ودخول الجنة، ولذلك يظل المؤمن واعياً مدركاً لما يكيده له الشيطان فلا يغره ولا تغره ظواهر المتع الدنيوية.

والآية الثانية: تتحدث عن ابتلاء بالشر والخير، فهما متاحان للإنسان في الحياة، والمؤمن يقبل على الخير بكل أنواعه ويستكثر منه طمعاً في الأجر، ويعرض عن الشر ويستغفر عما يقع فيه، خوفاً من الوزر لأن الرجوع إلى الله مرتبط به الحساب والتواب.

وفي الآية الثالثة: إجمال للموقف من غير ذكر لما بين الخلق والموت من ابتلاء حتى يكون الإنسان ذاكراً للموت في كل حين غير مغتر بما في يديه من متع الحياة وهو حال كثير من الناس.

ويظل الموت الحقيقة الكبرى في مسيرة الإنسان وما بعدها مرتبط بما استقر في قلبه من يقين.

الفرقان

وردت كلمة الفرقان في كتاب الله ست مرات، بمعان متعددة.. والمعنى الأول لكلمة فرَق يدل على الفصل والتمييز بين الأشياء.

ففرق البحر فصله، والفريق والفرقة جماعة متميزة بصفات خاصة أو عمل خاص، والفراق انفصال، وهكذا.

وقد وردت كلمة الفرقان للدلالة على يوم بدر في سورة الأنفال في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال: ٤١] وهو يوم كان له ما بعده لأنه كان الوقعة الأولى التي يتنصر فيها المؤمنون على المشركين، ورأى المؤمنون فيه من الآيات والدلائل من النصرة الربانية ما جعلهم يوقنون أنهم على الحق وأن أعداءهم على الباطل وتفصيل ذلك ما ورد في سورة الأنفال من إنزال المطر وتغشية النعاس وتنزيل الملائكة بالنُّصرة.

والذي يهمني أن أشير إليه هو ما ورد من الآيات فيها كلمة الفرقان لتدل على القرآن ولتدل على شيء آخر سأبينه من بعد.

ففي الحديث عن موسى وهارون عليهما السلام قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٥٣].

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٨].

ونلاحظ في هاتين الآيتين إشارة إلى كتاب وفرقان وإلى فرقان وضياء وذكر.

فالكتاب الذي أنزل على موسى هو التوراة، وهو الضياء باعتبار وظيفته في إضاءة حياة الإنسان التي تكون عتمة من الوحي، وهو ذكر لأنه وسيلة تذكر الإنسان وظيفته، كما أنه يرفع ذكر من يحمله ويأخذه بقوة.

فما الفرقان؟

نلاحظ أن الفرقان شيء آخر غير الكتاب المنزل..

هذا في شأن موسى وهارون، فماذا عن الكتاب المنزل على محمد ﷺ؟

إننا نجده يوصف بالفرقان: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

ومثله: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران: ٣ - ٤].

ومثله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

فما الفرقان؟

إنه المعجزة الدالة على صدق الكتاب، وعلى صدق نبوة النبي فالكتاب الذي أنزله الله على موسى هو التوراة ليست معجزة في حد ذاتها لكنها كتاب هداية وضياء، والدليل الذي قدمه موسى عليه السلام على صدق نبوته أو الفرقان هو العصا واليد وما جاء بعد ذلك.

وأما ما أنزل على نبينا محمد ﷺ فقد كان كتاباً وفرقاناً، فهو كتاب ومعجزة.

ولذلك سميت فقرات سوره آيات أي براهين لأن الإعجاز مضمن فيها، ومن هذا يتبين لنا أن كلمة الفرقان في المواضع التي وردت فيها مقترنة بكتاب منزل تدل على المعجزة وأما الكتاب الأخير القرآن الكريم فهو فرقان أي معجزة.

وأما قوله تعالى: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩] فهو بين المعنى أن الله تعالى يقذف في قلب المؤمن من نور الهداية ما يتبين به يقيناً أنه على الحق، فتكون كلمة فرقان بمعنى البرهان والدليل.

ويل للمطفّفين

الطفيف الشيء القليل، وطفف الكيل قلّل نصيب المكيل له.

وللمطففين في كتاب الله سورة خصصت لهم، وعرفت باسمهم، ولهذا التخصيص دلالة، لأن الناس حيث كانوا لا يستغنون في تجارتهم عن الكيل والوزن.

وقد يعجب بعض الناس من اهتمام القرآن الكريم بأمر السوق والتفاته إلى هذه النسبة القليلة التي يقتطعها التاجر من نصيب من يبيعه، وهي نسبة تكبر كثيراً في عينه على مبدأ: الفلس إلى الفلس دينار، والقطرة على القطرة نهر! وينسى أنها تتحول إلى ركام يغرق تحته وإلى غضب من الله يدخلهم في الويل:

﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ﴾ [المطفّفين: ١ - ٣].

إن القرآن كتاب الله تعالى الذي جاء لضبط الحياة كلها في كل شأن من شؤونها، ولذلك قال الله تعالى في شأن ما نحن فيه: ﴿وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ﴾ [الإسراء: ٣٥]، ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٩] بل الأمر أكثر من ذلك بحين يحاسب الله الناس يوم القيامة يحاسبهم بما قال: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾[الأنبياء: ٤٧] ﴿وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ﴾ [الأعراف: ٨].

هذا الأمر يجعل قلب المؤمن وعقله ومنهجه في التعامل في أشد حالات اليقظة والتنبه ليعطي الناس ما لهم وليستوفي الذي له بالقسط فلا يظلم ولا يظلم.

وإذا كانت كتب التفسير وهي تشير إلى أسباب النزول تتحدث عن أمور تتعلق بالسوق في المدينة من تطفيف للكيل والميزان فإن الأمر أمر إنساني ممتد مع الإنسان زماناً ومكاناً. فمن قبل قال شعيب عليه السلام لقومه: ﴿فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥] ووردت دعوته هذه لهم مرة أخرى في كتاب الله في قوله: ﴿۞ أَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾[الشعراء: ١٨١ - ١٨٢] وقوله:﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَۚ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٖ مُّحِيطٖ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [هود: ٨٤ - ٨٥].

أرأيت هذا الإلحاح من شعيب على قومه بالنهي أولاً وبالأمر ثانياً، أولاً يلفت النظر حكاية القرآن الكريم عن ذلك بتكرار ليدل على أن هذا المرض لم يكن من خصوصيات قوم شعيب بل من أمراض البشرية.

ولذلك جاء القرآن الكريم في موضع ليشير إلى الويل الذي ينتظر المطففين كما جاء بالأمر الصريح بإيفاء الكيل والميزان، ففي الوصايا الواردة في ختام سورة الأنعام قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ﴾ [الأنعام: ١٥٢]

وفي الوصايا الواردة في سورة الإسراء..﴿ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴾ [الإسراء: ٣٥].

فأين نجد التطفيف في الكيل والوزن في زماننا؟

إنه في كثير مما يكال ويوزن، وبه يطمع التجار أو نسبة منهم إلى تحقيق هامش من الربح يضاف إلى ثروتهم، ألا ترى إلى كثير من العبوات التي كانت ثلاثة لترات يُنقص منها لتر أو نصفه أو ثلاثة أرباعه؟

ترى ذلك في الألبان والزيوت ومواد التنظيف، وللناس شكوى لا تنتهي من بائعي المحروقات، ويتحدثون عن أفانين لباعة الكاز والسولار في التطفيف وبخس الناس أشياءهم.

وإذا كان هذا التطفيف في ما يكال ويوزن فهناك تطفيف من نوع آخر حين تجري الألسنة بالحديث عن الناس، فكم من لسان طفف حسنات ينبغي أن تذكر، وزاد في عيوب وسيئات ينبغي أن تستر، والأمر كله عائد إلى التقوى، فمن غش أو خدع فإنما يغش نفسه ويخدعها، فالله علام الغيوب، ولا تخفي عليه خافية، ولا يساوي مال الدنيا كله وقفة الفضيحة يوم يقوم الأشهاد، والعذاب الأليم الذي لا يغني عنه مال ولا ولد!!.

متى نصر الله؟

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤].

منذ أن بعث الله تعالى أول رسول إلى خاتمهم محمد عليه وآله الصلاة والسلام ورسل الله وحملة الدعوة من بعد يتعرضون للمحن. فما جاء نبي قومه إلا كذبوه، وقالوا: ساحر أو مجنون.

وإذا نظرنا في نهاية العلاقة بين أكثر الأنبياء وأقوامهم، وجدناها تنتهي بالإصرار على التكذيب، أو التهديد أو السعي إلى الإيقاع بالنبي ومن معه، ويقف النبي والمؤمنون موقف المستغيث بالله فلا حيلة لهم بدفع كيد قومهم أو مجاهدتهم بالسيف، فلقومهم الغلبة في العدد والعُدة. وذلك ما أشارت إليه الآية التي وردت في مطلع المقال ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ﴾؟

وقد تجلى نصر الله للأقوام السابقين في عقوبات طبيعية، وكوارث بيئية حلت بهم فأفنتهم كأن لم يكونوا.

نجد ذلك في طوفان نوح الذي ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴾ [القمر: ١٠ - ١٣].

وكانت عاقبة قومه أن كانوا من المغرقين، ونجا نوح ومن آمن معه ممن

ركب في السفينة. فكان نصر الله له بهذه الكارثة الطبيعية التي غيرت وجه الأرض.

وكذلك كان حال عاد قوم هود الذين كذبوه ولم يستجيبوا لنداء الإيمان ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩].. فكان نصر الله لهود حين بلغ الأمر مداه، ووصل مع قومه الطريق المسدود أن سلط الله عليهم الريح العقيم التي تركتهم كالرميم: ﴿وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ٦ سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗاۖ فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ ٧ فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ﴾ [الحاقة: ٦ – ٨].

ومثل ذلك كان مع ثمود قوم صالح الذين كذبوه وعقروا الناقة التي بعثها الله تعالى آية دالة على رسالته، فلما بلغ الأمر مداه أنذرهم بالعذاب النازل بهم ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ﴾ [هود: ٦٥] ونجا الله تعالى صالحاً ومن آمن معه، ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ [هود: ٦٧] وسمى الله العذاب النازل بهم بالطاغية ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ [الحاقة: ٥] فقد أخذتهم صيحة من السماء ورجفة في الأرض فسوى الله ديارهم وأهلكهم.

وفي نصر الله للوط ومن آمن معه آية فقد فعل قومه الفاحشة التي لم يسبقهم بها أحد من العالمين، فكان عقابهم متفرداً، وجعل الله عالي ديارهم سافلها وأنزل مطراً من سجيل.

ونصر الله موسى على فرعون لما طغى بالإغراق في البحر هو وجنوده، متى نصر الله؟ هذا النداء الذي يطلقه المؤمنون تجلى في النبوات السابقة في عوامل طبيعية سخرها الله على الأعداء، وفي عهد رسول الله ﷺ ومن بعده أمر المسلمون بالجهاد ومع جهادهم كانت نصرة الله تتجلى، كما تجلت في بدر وحنين، وفي معارك كثيرة عبر تاريخ الإسلام، يبذل المؤمنون جهدهم، ويأتيهم من بعده ومعه نصر الله.

وحين تستعلي قوة في الأرض، وتنصب من نفسها فرعوناً جديداً تتجلى نصرة الله بعيداً عن جهد المؤمنين، بإعصار يدمر ويترك الديار قاعاً صفصفاً، ويسبب دماراً في الأموال والأنفس، ولكن ذلك لا يعفي المؤمنين من القيام بما أمروا به من إعداد ما يستطيعون.

وآت ذا القربى حقه

ورد في كتاب الله تعالى في أكثر من موضع حديث عن ذوي القربى، وفي سياق بعض الآيات دل التعبير على ذوي قربى رسول الله عليه وآله الصلاة والسلام، وفي أكثر المواضع دل على ذوي القربى لكل إنسان، وهذا موضع الحديث.

إن مما يلاحظ في العلاقات الاجتماعية إهمال كثير من الناس لحق ذوي القربى، وضياع التكافل الاجتماعي بينهم، ولو أن كل عائلة أو عشيرة تواصل الأغنياء والفقراء فيما بينهم لزالت كثير من جيوب الفقر، ولساد الرخاء مجتمعاتنا.

ومما يلفت النظر هذا الإلحاح على نصيب القربى من العطاء، ولننظر في هذه الآيات:

﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

ونلاحظ كيف قدم ذوو القربى في إيتاء المال على غيرهم، ويلفت النظر أن الآية تضمنت درجتين من إعطاء المال الأول كأنه حديث عن الصدقات

والثاني جاء بذكر الزكاة ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وهذا بيان بأن في المال حقاً سوى الزكاة التي نجد من بعض الناس اقتصاراً عليها. وورد ذكر ذوي القربى في أكثر من موضع مع الوالدين، ليدل عل أنهم الأعمام والأخوال ومن فوقهم ومن تفرع منهم.

﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [البقرة: ٨٣].

﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النساء: ٣٦].

ومن حق ذوي القربى ممن لا يرثون أن يعطوا شيئاً من المال تطيباً لخاطرهم إذا حضروا قسمة الميراث.

﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [النساء: ٨] وهذا أمر على الندب لا على الوجوب كما قال أهل العلم.

وإذا ورد الأمر بالإحسان إلى ذوي القربى في مواضع مقروناً بالوالدين فإن هناك نصاً على حق لذوي القربى:

﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٦].

﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الروم: ٣٨].

ولا ريب في أن لغير ذي القربى من الفئات المذكورة معهم حقوقاً لكن ذوي القربى هم الأولى. وقال أهل العلم في بيان حقهم:

«حقهم إذا كانوا محارم كالأبوين والولد، وفقراء عاجزين عن الكسب وكان الرجل موسراً أن ينفق عليهم - عند أبي حنيفة، والشافعي لا يرى النفقة، إلا على الولد والوالدين فحسب وإن كانوا مياسير، أو لم يكونوا محارم كأبناء العم فحقهم صلتهم بالمودة والزيارة وحسن المعاشرة والمؤالفة على السراء والضراء والمعاضدة».

وأقول: هل لأي صلة معنى إذا لم تتجلَّ في صورة مادية تلبي الحاجة إن وجدت، وتطيب القلب بالهدية والدعوة وأشكال الصلة؟ إن من أعظم الصور التي تمثل إيتاء حق ذوي القربى ما كان يفعله طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه، حين كان في كل عام حين يحول الحول على ماله يتفقد ذوي قرباه من بني تيم فيصل غنيهم، ويغني فقراءهم، يزوج من يحتاج إلى زوجة، ويقضي دين من عليه دين، ويعين من لم يكن له خادم أن يتخذ خادماً، ومن لم تكن له دابة اتخذ له دابة. مثل هذا التواصل مع ذوي القربى هو الترجمة لعملية لإيتاء ذوي القربى حقهّم، ولو أن أغنياءنا فعلوا ذلك لتغيرت مجتمعاتنا. ولا ريب أن العطاء لا يقتصر على ذوي القربى وحدهم بل يمتد إلى كل من له حاجة من المجتمع من فقير ومسكين ويتيم وابن سبيل.

لعلكم تتقون

في حديث القرآن الكريم عن ثمرة الصيام وغايته يأتي قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣].

وقد وردت كلمة ﴿تَتَّقُونَ ﴾ ومشتقاتها في مواضع مع إغفال مفعولها، ووردت في مواضع أخرى محددة الأمر الذي يتقيه المؤمن.

والتقوى:- جعل النفس في وقاية مما يُخاف. ويسمى الخوف تارة تقوى، والتقوى خوفاً حسب ما يبينه السياق.

والتقوى في الاصطلاح الشرعي: حفظ النفس عما يُؤثم بترك المحظور، ويتم ذلك بترك بعض المباحات.

ومن الأمثلة على ورود كلمة التقوى ومشتقاتها من غير بيان ما يُتقى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ٢١] ويفهم من السياق تتقون غضبه.

﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ٦٣].

والمعنى: تحذرون من الوقوع فيما يغضب الله فمن أخذ بما في كتاب الله اجتنب المحارم وفعل المطلوب.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦] ونلحظ أن ﴿وَٱتَّقَوْاْ﴾ جاء بعد ﴿ءَامَنُواْ﴾ لتكون التقوى ثم الإيمان بفعل المطلوب واجتناب المحارم والشبهات.

«ولكن البّر من اتقى» وفي هذا الموضع وأشباهه إشارة إلى ترك ما حرم الله وفعل ما أمر به.

وفي مواضع من كتاب الله تحديد للمتقى:

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ﴾ [الزُّمَر: ٢٠].

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزُّمَر: ٧٣].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩].

﴿وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢].

وتقوى الله سبحانه تكون بمخافته ومخافة عذابه، والسعي إلى اجتناب غضبه، وإنما يكون ذلك بفعل ما أمر، وترك ما نهى، وتتحول التقوى بذلك إلى منهج حياة يلازم الإنسان في كل لحظة من لحظات عمره، إذا هم بأمر فإن كان خيراً أقدم عليه، رغبة فيما عند الله من خير وأجر، وإن كان شراً كفَّ عنه خشية من غضب الله وعقابه.

وكثيرة هي المواضع التي ورد فيها الأمر الصريح بتقوى الله لتكون منهجاً في الحياة:

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠] ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤].

وجاء في موضع التحذير من النار والأمر باتقائها لأن الموضع الذي يتجلى فيه غضب الله وعقابه:

﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤].

وجاء التحذير من يوم القيامة الذي يتجلى فيه غضب الله على من عصاه ولم يتقه:

﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [البقرة: ٤٨].

﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١].

وجاء التحذير من الفتنة التي تؤدي إلى نزول عذاب الله العاجل الذي يصيب كل من نزل عليه من صالح وطالح:

﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥].

وتظل التقوى هاجس المؤمن في اتقاء غضب ربه، واتقاء الفتنة واتقاء يوم القيامة، واتقاء النار التي وقودها الناس والحجارة.

اقرأ باسم ربك

أول ما نزل على رسول الله عليه وآله الصلاة والسلام قوله تعالى:

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق: ١ - ٥]

وقد ورد في كتب الحديث والسيرة ما كان من أمر النبي ﷺ عند نزول الوحي عليه وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال:

اقرأ، قال رسول الله ﷺ فقلت: ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ....﴾.

وكثيراً ما استوقفني في هذا الموقف: اقرأ- ما أنا بقارئ.

إنهما أمر ونفي، ولدلالة اللفظة هنا ارتباط بمشتقاتها ودلالاتها. فما معنى هذا الأمر: اقرأ؟ ليس الأمر قراءة من كتاب، والدلالة على ذلك نفي النبي ﷺ: ما أنا بقارئ! وأسارع إلى القول: إن معنى اقرأ: اتل من حفظك. وكان الجواب: لا أحفظ شيئاً.

﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]. وجاءه الجواب بعد إقراره ثلاثاً أنه لا يحفظ شيئاً أنه سيحفظ

ما ينزل عليه باسم ربه. فمعنى قرأ: حفظ: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلى: ٦].

وإذا رجعنا إلى الأصل اللغوي لمعنى قرأ وجدنا: جمع.

قال ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث: «قد تكرر في الحديث ذكر: القراءة والاقتراء والقارئ والقرآن، والأصل في هذه اللفظة: الجمع، وكل شيء جمعته فقد قرأته، وسمي القرآن قرآناً لأنه جمع القصص والأمر والنهي والوعد والوعيد والآيات والسور بعضها إلى بعض».

وهذا المعنى الأصلي لا ينفي ورود كلمة قرأ ومشتقاتها بمعنى تلا الشيء من حفظه أو من كتاب، ولذلك شواهد من القرآن الكريم ومن السنة. وعندما نسمع كلمة «قارئ» القرآن فإن المعنى الأصيل هو حافظ القرآن، وهذا ما أفهمه من قوله عليه وآله الصلاة والسلام: «يقال لصاحب القرآن: اقرأ وأرق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلك عند آخر تقرؤها، ولا يخفى أن الإنسان يوم القيامة لا يقرأ من كتاب بل من حفظه. وفي الحديث «أكثر منافقي أمتي قراؤها»، قال ابن الأثير في النهاية: «إنهم يحفظون القرآن نفياً للتهمة عن أنفسهم، وهم معتقدون تضييعه، وكان المنافقون في عصر النبي ﷺ بهذه الصفة».

وعندما يقال: فلان قارئ للقرآن فدلالة قارئ: أنه حافظ. ولا يقال إنه قارئ للسورة إلا إذا حفظها- ما لم يكن يقرأ من كتاب، وقول الرسول ﷺ: «اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه. اقرؤوا الزهراوين: البقرة وآل عمران، فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو

كأنهما فرقان من طير صواف يحاجان عن أصحابهما، اقرؤوا سورة البقرة، فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا تستطيعها البطلة». والتدقيق في دلالة «اقرؤوا» في هذا الحديث يدل على الحفظ لا التلاوة من القرآن الكريم.

وأقول: إن لكلمة قرأ ومشتقاتها أكثر من معنى، لكن هذا المعنى الذي أشرت إليه قد غفل عنه كثير من الناس، وشاع لديهم المعنى الآخر قرأ: تلا من كتاب. ولهذا المعنى أدلة من القرآن والسنة منها قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [النحل: ٩٨] وقوله ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٥].

ومن الأحاديث قوله عليه الصلاة والسلام: «اقرأ القرآن في كل شهر، اقرأه في عشرين ليلة، اقرأه في عشر، اقرأه في سبع ولا تزدد على ذلك»، والقراءة هنا بمعنى ختم القرآن تلاوة، من كتاب أو من حفظ. ومنها: «اقرأ المعوذتين فإنك لن تقرأ بمثلهما».. «اقرأ قل يا أيها الكافرون عند منامك فإنها براءة من الشرك».

اصبروا وصابروا

الآية التي ختمت بها سورة آل عمران هي: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

وفي هذه الآية الكريمة نداء تتلوه أربعة أوامر عاقبة التزامها الفلاح، والأوامر هي: الصبر والمصابرة والمرابطة وتقوى الله.

ولكن الذي يلفت النظر هو الإيجاز البليغ بذكر الفعل والفاعل في الأوامر الثلاثة الأولى من غير ذكر لما يتعلق به، مما يجعل المعنى واسعاً محتملاً لكل ما يصبر عليه ويصابر ويرابط فيه.

﴿ٱصۡبِرُواْ﴾ هكذا من غير تحديد، وهذا التعميم يجعل الاحتمالات كلها مطلوبة، وتجعل المسلم يستحضر كل الأوامر التي وردت في القرآن الكريم آمرة بالصبر:

﴿ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴾ [يونس: ١٠٩].

﴿ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴾ [النحل: ١٢٧].

﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ ﴾ [الكهف: ٢٨].

﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ [طه: ١٣٠].

﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [لقمان: ١٧].

﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ﴾ [ص: ١٧].

﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ [القلم: ٤٨].

﴿ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴾ [المعارج: ٥].

﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴾ [المدَّثر: ٧].

ومع استحضار هذه الأوامر يستذكر المسلم أن للصبر ثلاثة مجالات: صبر على الطاعة، وصبر عن المعصية، وصبر على الأقدار، وفي الحالات كلها ينال أجراً عظيماً ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزُّمَر: ١٠].

وورد الأمر بالمصابرة في القرآن الكريم مرة واحدة في الآية التي استفتحنا بهذا هذا المقال. والمصابرة صيغة مفاعلة تدل على المشاركة وقد ورد في كتب التفسير «صابروا أعداء الله في الجهاد أي غالبوهم في الصبر على شدائد الحرب، لا تكونوا أقل صبراً منهم وثباتاً، والمصابرة باب من الصبر ذكر بعد الصبر على ما يجب الصبر عليه تخصيصاً لشدته وصعوبته.

وهذا التفسير ذكر احتمال من احتمالات، فالمصابرة على الجهاد فهم، لكن من أمور الحياة الأخرى ما يحتاج إلى مصابرة، فقد لا يمتلك الإنسان

الصبر على أمر فيحتاج إلى مصابرة أي تكلف الصبر حتى يصبح خلقاً، كما جاء في حديث مشابه «فإن لم تبكوا فتباكوا» أي تكلفوا البكاء.

﴿وَرَابِطُواْ﴾: والرباط هو المكان الذي يقيم فيه حراس يحافظون عليه. ومنه المرابطة في ثغور المسلمين لحفظ الحدود من الأعداء. وقد وردت أحاديث كثيرة في فضل الرباط على الثغور، ومنها: «رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها» (رواه البخاري).

«رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه وإن مات فيه جرى عليه عمله الذي كان يعمل وأجري عليه رزقه وأمن الفتان» (رواه مسلم).

«عينان لا تمسهما النار عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس في سبيل الله» (رواه الترمذي وقال حديث حسن).

وليس هذا المعنى للرباط هو المعنى الوحيد فقد وردت أحاديث بأن من معني الرباط انتظار الصلاة بعد الصلاة:

«ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط» (رواه مسلم).

وهناك معنى آخر للرباط هو مرابطة النفس على الصالحات من الأعمال، فهناك ثغور نفسية وجبهة داخلية، الأعداء فيها الشيطان والنفس والهوى، والشهوات وأولياء الشيطان، ذلك الذي ورد أنه الجهاد الأكبر. فهي جبهات متعددة تحتاج إلى مرابطة.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾: وتقوى الله مخافته، وخشية غضبه، والبعد عما يؤدي إلى وقوع عذابه في الدنيا والآخرة.

وثمرة هذه الأوامر الأربعة الفلاح، والفلاح يعني الظفر بالمطلوب، وإدراك الأمر المراد. وهل هناك أعظم من نيل رضوان الله، ودخول جنته؟.

سراً وعلانية

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[البقرة: ٢٧٤].

الإنسان والمال قصة أساسية في الأرض، كقصة الرجل والمرأة، والإنسان والسلطة، والإنسان وما زين له من أشياء وردت في الآية الرابعة عشرة من سورة آل عمران.

ولأن الإنسان يحب المال حباً جماً، ولأنه به شحيح، وعلى امتلاكه وكنزه حريص، جاءت آيات كثيرة في كتاب الله تحض الإنسان على سماحة النفس، والتخلص من الشح، والإنفاق من غير خوف للفقر.

ولهذه الآية التي بين أيدينا إيحاء في هذا المجال ينبغي التوقف عنده، ودلالة ينبغي التنبه إليها.

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم ﴾ لقد أسندت الأموال هنا إلى مالكيها فجاءت بصيغة﴿أَمْوَٰلَهُم﴾ وهذا التعبير على ظاهر الأمر، مع أن آية أخرى بينت أن الإنسان يملك المال ملك استخلاف، وأنه ليس ملك دوام، فالمال ينتقل إلى «الغير» بسبل شتى، والموت يفك ارتباط الإنسان بما كان يملكه ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧].

وفي إسناد الأموال إلى منفقيها تكريم لهم، لأنهم ملكوها وملكوا زمام

نفوسهم فلم تشح، بل كانت تلك الأموال في أيديهم يتصرفون بها ولا تستعبدهم.

﴿بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ﴾ وهذا التعبير عجيب يستوقف أو ينبغي أن يستوقف، فالمعلوم أن ميدان الحركة والعمل والإنفاق هو النهار، فلماذا قدم الليل على النهار في سياق الإنفاق؟ لنربط الليل بالسر والنهار بالعلانية، لنتوقف عند هذا التناسق اللفظي البديع الذي يوافق الحركة المطلوبة، والأمر المرغوب.

وفي تقديم الليل والسر على النهار والعلانية دعوة إلى تفقد أصحاب الحاجات الذين لا يسألون الناس إلحافاً، حفظاً لكرامتهم من أن تمس، وكم من بيت مستور أغلق أهله بابه وهم في أمس الحاجة إلى العون، هؤلاء المستورون ينبغي الإنفاق عليهم في ستر في الليل وبالسر. وفي الإنفاق الليلي السري استبقاء الحسنات مستورة لا يراها الناس، بل يعلمها الذي يعلم السر وأخفى، وفي هذا الستر والإخفاء إبعاد للنفس عن شبهة الرياء.

﴿فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ ويلفت النظر وقوع الفاء في جملة الخبر، وذلك لما تضمنته ﴿ٱلَّذِينَ﴾ من دلالة الشرط، وكأن الأجر مشروط بصدق النية ومن فضل الله على المنفقين أن أضاف إلى ضميرهم «هم» الأجر فقال: ﴿أَجۡرُهُمۡ﴾ وكأنهم استحقوا هذا الأجر فصار لهم بما قدموا من الإنفاق من ﴿أَمۡوَٰلَهُم﴾، والله تعالى متفضل عليهم أولاً بأن جعل لهم «أموالاً» وهيأ لهم

سبيل «الإنفاق» ثم جعل لهم بعد ذلك ﴿أَجۡرُهُمۡ﴾ وما أعظمه من أجر حين ينسب إلى «العندية الربانية» ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ فليس هو أجراً فحسب بل هو أجر مع تكريم.

﴿وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ لقد جاء نفي الخوف والحزن بعد إثبات الأجر، فلماذا ختمت الآية بنفي الخوف والحزن؟

إن الذي ينفق في سبيل الله يتخلص من «الخوف» خوف الفقر والحاجة، شعاره النداء النبوي لبلال «أنفق بلال ولا تخش من ذي العرش إقلالا» ثم يكون في رعاية الله الحامية لهم مما يخاف، ولم يأت السياق بقول «لا يخافون» كما جاءت الصيغة التالية ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ وجاءت الصيغة بقول: ﴿وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ لا بصيغة لا خوف لديهم أو منهم. وفي هذه الصيغة ما يثير في نفس المنفق الطمأنينة والرضى، فهو في عناية الله، فكيف يُخاف عليه؟ وانظر إلى الصيغة ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ كيف جاء الضمير قبل الفعل ليدل على تخصيص لهم بنفي الحزن عنهم، ولماذا الحزن؟ لأن الشحيح الذي استعبده المال يحزن على ما يفقده من مال بالإنفاق، وأما المؤمن فهو سعيد بما ينفق، بما يطيّب به خاطر من ينفق عليه، وبما يناله من رضوان الله تعالى.

ويظل التعبير في الأمرين المنفيين تعبيراً عاماً غير مخصص بالآخرة بل يشمل الدنيا والآخرة: لا خوف عليهم في الدنيا وعند الموت وعند البعث وعلى الصراط إلى أن يدخلوا الجنة، ولا هم يحزنون في الدنيا وعند فراق

الدنيا، ويوم يبعثون آمنين حتى تتلقاهم الملائكة عند باب الجنة. وما لهم لا ينالون هذا الأجر العظيم وقد كان همهم تفريج هموم عباد الله في الليل والنهار وسراً وعلانية؟!

ألهاكم التكاثر

سورة التكاثر من السور القصيرة في كتاب الله، المكتنزة بالمعاني، والمصورة للمراد في إيجاز يستوقف، ويجعل المتلقي في شغل بما يتلقى، تفكيراً فيما هو فيه، ونظراً فيما هو آتيه.

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ جملة قصيرة مكونة من فعل ماض يدل على أمر دائم مستمر، ولئن أخبر عن الإلهاء بصيغة الماضي لا بصيغة المضارع (يلهيكم) فإنما ذلك لأن التكاثر ألهى من قبلنا ويلهينا وسيلهي من بعدنا، بل إنه ألهانا في الذي مضى من أعمارنا، فالإلهاء أمر قد تم، والمطلوب التنبه إليه والخلاص من شراكه حتى لا تكون العاقبة رؤية الجحيم. ومع الفعل الماضي المفعول به المقدم ضميراً للمخاطب في صيغة الجمع لأن المرض ليس فردياً فيقال للإنسان: ألهاك، بل هو جماعي على درجات وتفاوت بين الناس في الوقوع فيه فجاءت الصيغة صيغة جمع ﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾.

وجاء الفاعل المؤخر ﴿ٱلتَّكَاثُرُ﴾ من غير تخصيص أو تقييد يبين نوعه، فلم يقل: التكاثر بالمال أو الولد وإنما جعله مطلقاً يصلح لكل ما يتكاثر به الناس من ذهب وفضة أو دولار أو دينار، أو غنم أو بقر، أو عمارات أو سيارات وهكذا..

واللهو هو انشغال الإنسان عن الغاية التي خلق لأجلها بما يلهيه عنها وينسيه إياها. وقد جاء في وصف المؤمنين الذي يعمرون مساجد الله ﴿رِجَالٌ لَّا

تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ﴾ [النور: ٣٧].

وجاء النهي للمؤمنين عن الانشغال بالعاجل عن الواجبات، وبالأدوات عن الغايات: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [المنافقون: ٩].

ويظل اللهو ديدن الغافلين الشاردين عن الله الذين رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها وهم عن آيات الله غافلين:

﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ ﴾ [الأنعام: ٧٠].

﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الحجر: ٣].

ويصور القرآن الكريم حقيقة الدنيا وما فيها من متع تغرّ وتشغل إن لم يكن القلب مستيقظاً لحقيقة ما هو فيه: من مطلوب يقوم به، وضروري يتزود به، وغاية يسعى إليها، وتطل صورة الحياة الدنيا المنقطعة عن الآخرة في آيات منها:

﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٢].

﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ

وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴾ [الحديد: ٢٠].

ويظل القلب المؤمن يقظاً حياً مدركاً لطبيعة الحياة، إنما فيها متاع، يزول سريعاً ويمضي كلمح البصر، يدرك ذلك مما مرّ به من متع الحياة، فلا تلهيه ولا تغويه ولا تغرّه، بل يأخذ من متع الحياة التي أحل الله له قدر الحاجة من غير إسراف، وتظل عينه على الآخرة التي هي أبقى، وتظل الرهبة من عاقبة اللهو تحفزه إلى المزيد من الطاعة فعاقبة التلهي بالتكاثر﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾[التكاثر: ٦ - ٨] ويظل ما عند الله خيراً من اللهو ومن التجارة التي تشغل عن ذكر الله والصلاة.

ولأمة مؤمنة

قال الله سبحانه: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٢١].

كان من الأهداف الأساسية للقرآن الكريم إرساء قيم اجتماعية جديدة مع إرساء قيم الاعتقاد الجديدة، فالتوحيد أساس الدين، ومفتاح الجنة، والنظر إلى الأشياء والأشخاص يتم من خلال هذا التوحيد. وقيمة الناس ترتفع أو تنخفض بعد وضعهم في هذا الميزان الدقيق. وفي مجال الزواج تختلف موازين الناس، فأكثرهم يميلون إلى الظاهر، فيبحثون عن الجمال، ويضيفون إليه موازين أخرى، بينها حديث رسول الله عليه وآله والصلاة والسلام: «تنكح المرأة لأربع، لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك».

فالمال مطمع للطامعين، والحسب (النسب والجاه) يتطلع إليه الباحثون عن سند دنيوي، والجمال مطلب من يغرّه ظاهر الأشياء، والدين هو الأساس الذي يبنى عليه كل شيء، فإذا اجتمع الجمال والمال والحسب مع الدين تم المطلوب في المرأة، وإذا فقد الدين فلا قيمة للصفات الأخرى.

وليس الأمر مختصاً بالمرأة وحدها، بل الأمر ممتد إلى الرجل الذي يأتي طالباً للزواج، فمن الناس من يزوج إكراماً لماله أو مال أبيه، أو لعشيرته

وقبيلته، أو تميل المرأة إليه لوسامته.

وحرصاً من الإسلام على سلامة الحياة الزوجية واستقرارها جاءت هذه الآية الكريمة مبينة بتفصيل واضح وبإيجاز بليغ ما ينبغي أن يكون ميزاناً معتبراً عند تقدم رجل لزواج أو عند طلب الزواج من امرأة.

﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ هكذا بنهي صريح واضح عن الزواج من المشركات حتى يؤمن فينتقلن من الشرك والضلال إلى التوحيد والإيمان، فيكن بذلك صالحات ليكنّ زوجات وأمهات تقوم بهن بيوت مؤمنة صالحة، ويكن أهلاً لتربية جيل مؤمن يسعى إلى الهدى في الدنيا، ويكون من أصحاب الجنة.

وتأتي المفارقة التي تصدم الميزان السائد: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ الإماء كن عند العرب للخدمة لا للزواج، لكن الأمة المؤمنة خير من المشركة، ولننظر هنا كيف جاء السياق القرآني في إيجاز في موضع وفي تفصيل آخر لإقرار الميزان الجديد. جاء في الآية: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ﴾ والأمة موصوف بعده صفة، لكن «مشركة» جاءت صفة محذوفة الموصوف وهو: «خير من حرة» فمقابل الأمة: الحرة ومقابل المؤمنة: المشركة فلماذا ذكرت الصفة مع الموصوف في الأمة وحذف الموصوف مع المشركة؟!

الموقف موقف تحبيب للأمة المؤمنة وتنفير من الحرة المشركة ولذلك ذكر مع الأمة ما يستر عيب العبودية، ترغيباً فيها وبياناً لفضلها، وحذف من المشركة ما يرغب فيها وذكر ما ينفر منها.

ومثل ذلك جاء في الجانب الآخر عند الحديث عن طالب الزواج المؤمن وطالب الزواج المشرك: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ وتقدير المحذوف: خير من حر مشرك...

فانظر إلى بلاغة الإيجاز في هذه الآية في هذين الموضعين وتأمل ما فيهما من دلالة وأثر لمن يتدبر القرآن، وانظر في ختام الآية الذي يعطيك التعليل لما ورد فيها من تفضيل المؤمن والمؤمنة على المشرك والمشركة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾.

ولو أن أهل القرى

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

هل يستفيد الإنسان من أحداث التاريخ عبرا؟ بل هل يستفيد الإنسان عظات مما يرى ويسمع في عصره؟

ألا ترى الناس وهم يتجولون في آثار الأقوام السابقين، قليل منهم من يستيقظ قلبه بالعبرة، وأكثرهم مشغول بالآثار الباقية بعد من أقامها، مشغول بصور تذكارية يصطحبها معه وتبقى ذكرى، يحمل الذكرى ويغفل عن التذكر والاعتبار.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٠].

لماذا لا يستجيب البشر لدعوة أنبيائهم؟ ولماذا لا تستيقظ قلوبهم وهم يرون آيات الله عليهم بالبأساء والضراء وبالنعمة والرخاء؟

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ [الأعراف: ٩٤] إنها ألوان من القوارع التي تخاطب العقول وتوقظ القلوب وتلامس الحواس، فماذا كان شأن الناس؟

هل عادوا إلى الله وتضرعوا؟ وبعد الابتلاء بالبأساء والضراء في نقص

الأموال والأنفس والثمرات تأتي النعمة الغامرة التي تنسي البلاء الأول ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٥].

إنها الغفلة القاتلة، الغفلة بالانشغال باللحظة ومتعتها، ونسيان ما كان وما هو آتٍ، فما يشعر الناس إلا بالكارثة تحيط بهم، وبالعذاب يصدمهم.

والإنسان في غفلته يشعر بالأمان حين يكون في بيته أو في مدينته أو دياره، وينسى أن الله تعالى قادر على أخذه حيث كان، وأن عذاب الله لا يحول دونه حائل.

والنظر في تاريخ الكوارث البشرية تجد منها ما ينزل في الليل والناس نائمون، فلا يملكون مقاومة ولا يستطيعون قراراً، وتكون الكارثة فوق ما يتوقعون ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴾[الأعراف: ٩٧].

ولماذا يأتي البأس؟ لأن هناك فساداً يحتاج إلى تطهير، وظلماً زاد عن الحد فلا بد من العقاب، فإن لم يُقَم العدل في الأرض بسيف الحق نزل البلاء الشامل.

وليس موعد الكارثة في الليل والناس نيام فحسب بل كم من كارثة حلت والناس منشغلون في نهارهم بأعمالهم وشؤون حياتهم وذلك ما صوره القرآن الكريم في صورة ﴿يَلْعَبُونَ﴾ في قوله ﴿ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾.

فهل من سبيل للأمان والنجاة من العذاب، نعم هو ما ورد في الآية في مفتتح المقال:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وأقم الصلاة

﴿ ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

في هذه الآية الكريم أمران: أمر بتلاوة القرآن الكريم، وأمر بإقامة الصلاة، وفيها بيان لثمرة الصلاة الحقيقية، وإيضاح لمنزلة ذكر الله، وإعلام بصفة من الصفات الربانية.

وتلاوة ما أوحي من الكتاب تحتمل معنيين: التلاوة بمعنى القراءة، ولهذا المعنى شواهد ﴿ قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ ﴾ [يونس: ١٦] ﴿يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ﴾ [آل عمران: ١١٣] والمعنى الآخر: الاتباع بفعل الأمر واجتناب النهي، وذلك ما كان عليه الصحابة الكرام حين كان الواحد منهم يحفظ العدد المحدود من الآيات ثم لا يتجاوزها إلى غيرها حتى يعمل بها، فكانت تلاوتهم حفظاً وفهماً واتباعاً يتجلى في الحياة.

ومن مستلزمات تلاوة ما أوحي إقامة الصلاة لأننا نجد فيما أوحي من الكتاب الأمر بإقامة الصلاة، في مواضع كثيرة، والإخبار عن المؤمنين أنهم يقيمون الصلاة، والذي يلفت النظر في كتاب الله أن الحديث عن الصلاة ارتبط بالإقامة بألفاظ متعددة: أقاموا/ أقيموا/ يقيمون، ولم يأت لفظ صلّوا بالأمر أو الماضي أو المضارع يصلون.

والإقامة رفع للشيء، أو تعديل أمر فيه عوج أو خلل. ومنها إقامة البناء أي رفعه ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٠] وجاء في بيان ما فعله العبد الصالح وموسى عليهما السلام حين آتيا على القرية التي أبى أهلها أن يضيفوهما ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ﴾ [الكهف: ٧٧] فلماذا جاء عن الصلاة بلفظ: أقام وأقيموا ويقيمون؟

إن في هذه الألفاظ ما يخرج الصلاة عن كونها حركات وسكنات وقراءة وتسبيحات ودعوات إلى أن تكون بناء يقام، وعملاً يحتاج إلى جهد ليكون كما يحبه الله تعالى وكما ينبغي أن يكون لتتحقق منه الفائدة المرجوة. والقيام في الفرائض ركن مع القدرة، وهو إقامة الظاهر، وهناك إقامة الباطن، التي تعني إصلاحه وتحويل الوجه، وجهة القلب والعقل للذي فطر السماوات والأرض، وتحويل الوجهة من الفحشاء والمنكر إلى كل عمل صالح يقرب من الجنة ويباعد عن النار ويجلب رضوان الله تعالى.

وأي قيمة لصلاة تصلى لا تترك نوراً في الوجه، واستقامة في الوجهة واتباعاً للمعروف وإعراضاً عن المنكر، ولذلك جاء التعقيب على إقامة الصلاة: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ﴾.

وقد جاء ترتيب الفحشاء والمنكر انتقالاً من الأكبر إلى الأصغر، ومن الخاص إلى العام، فكل فاحشة منكر وليس كل منكر فاحشة، فالفاحشة ما عظم من الذنوب ومنه الزنا وسائر الكبائر، والمنكر ما أنكره العقل السليم من الأعمال التي تخالف الفطرة وتكون ثمرتها سيئة على الناس والبيئة.

ويأتي تعقيب على ذلك وبيان لمنزلة ذكر الله، والصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر هي ذكر الله أو صورة من صور ذكر الله ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾ [طه: ١٤] وفي الصلاة تلاوة للقرآن وتسبيح وتكبير وصلاة على النبي ﷺ وكل ذلك من ذكر الله، وإن يكن ذكر الله ليس مقصوراً على الصلاة وحدها، فذكر الله يمتد ليشمل كل لحظة من لحظات حياة المؤمن ليكون من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات، والمؤمن الواعي يذكر الله تعالى مع كل شيء يراه أو تقع عليه حواسه لأنه يرى فيه آية من آيات الله.

وتختم الآية ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ ﴾ وهو ختام يثير لدى المسلم حساسية خاصة وشعوراً دائماً بالمراقبة سوء في ذلك حاله في الصلاة فيخلص النية فيها لله تعالى، وحاله في الحياة فيستقيم ويهجر الفحشاء والمنكر محققاً ثمرة الصلاة، ومديماً ذكر الله ليظل في حياة حقيقية.

هذه بعض المعاني التي تثيرها هذه الآية الكريمة وفيها لمن أراد المزيد من النفحات لمن تدبر ونظر بقلبه وعقله لا بعينه فحسب.

ومن يتق الله

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾ [الطلاق: ٢- ٣].

هذه الآية وبعض الآية من صورة الطلاق، ويلفت النظر في هذه السورة التي تشرع لحال التفريق بين الزوجين كثرة ما ورد فيها من الحديث عن التقوى والأمر به:

﴿وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ﴾.

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾.

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا﴾.

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ﴾.

هذا الحشد من الحديث عن التقوى في سورة الطلاق ذو دلالة خاصة كما هو ذو دلالة عامة، أما الدلالة العامة فالتقوى منهج حياة المسلم في كل شأن من شؤونه فهو يحسب حساب لقاء ربه، ويحسب حساب رقابة ربه له فلا يقدم على ما يغضب الله تعالى.

وأما الدلالة الخاصة فذات علاقة بالطلاق، لأن كثيراً من حالات الطلاق قد يبنى على التعسف أو المزاج، أو يسعى الزوج المطلق إلى الإضرار بالآخر من غير نظر إلى العواقب، فجاء هذا السياج من التقوى ليحيط بالعملية كلها،

ليكون المسلم على بينة من أمره.

فإذا انتقلنا بعد هذا النظر إلى السياق العام إلى الآية التي افتتحنا بها وجدنا أنها تعطينا قانوناً عاماً يشتمل على مقدمة ونتيجة لأنها جملة شرطية، فالمقدمة التقوى، والنتيجة أن يكون للمتقي مخرج، ورزق من حيث لا يحتسب.

ويلاحظ أن هذا القانون يصلح للسياق الذي ورد فيه، فالطلاق أزمة تعصف بالحياة الزوجية، وتفكك بنيان الأسرة، فمن اتقى الله في طلاق جعل الله له مخرجاً من هذه الأزمة، وجعل له من أمره يسراً، وكفر عنه سيئاته وأعظم له أجراً.

وكذلك حاله في كل أزمة لأن هذا القانون وإن يكن ورد في سياق الحديث عن الطلاق فإنه قاعدة عامة تصلح في كل أزمة يقع فيها الإنسان فإذا كان متقياً جعل الله له مخرجاً.

ولننظر في دقة التعبير الذي أغفل ذكر أزمة محددة وجعل الأمر عاماً بالإيجاز القائم على الحذف ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾ ولم يذكر مخرجاً من شيء محدد ليكون في هذا الحذف تعميم يشمل الحياة كلها وأزماتها، ولتتنوع المخارج بتنوع الأزمات.

والخروج من الأزمة والضيق فرج، لكن بعد الخروج لا بد من أمر تقوم به الحياة، أولا يحتاج إلى السجين حين يخرج من السجن إلى مال تقوم به حياته؟ ولذلك جاء التعقيب من المخرج ﴿وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ فالرزق

تقوم به حياة الإنسان، وتكون له به منزلة في الناس، وإذا كان للناس موارد رزق محددة معلومة، من راتب وظيفة، أو من عقار أو غير ذلك فالرزق الرباني الموعود للمتقين غير محدود بالمعلوم أو المتوقع من مصادر الزرق بل يأتيه من ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾.

وفي الحياة مواقف كثيرة يقف الإنسان فيها ذاكراً شاكراً لله وهو يرى تجلي هذا القانون الرباني حيث يجد المخرج من الضيق، واليسر من العسر، والفرج بعد الشدة ويجد الرزق يأتيه من حيث لا يحتسب فيلهج اللسان بالذكر، وينطق بالشكر، وينطلق العقل بالفكر، والقلب بالخشوع لرب السماء والأرض الحي القيوم.

هو القادر

﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ [الأنعام: ٦٥].

في هذه الآية الكريمة تهديد ووعيد للبشر الغافلين عن الله وقدرته، المنشغلين بالحياة الدنيا وزينتها عن حقيقة وجودهم، المغترين بما في أيديهم من نعم الله.

وقد جاءت هذه الآية معلنة قدرة الله المطلقة في إنزال العذاب بمن يستحقونه في ثلاثة أشكال، وجاءت هذه الآية بعد آيتين صورتا الضعف الإنساني في الأزمات، ولجوء الإنسان إلى الله سبحانه مستعيناً بقوته ليخرجه مما يعانيه، هذا الإنسان إذا ما تفرعن ونسي ما كان يدعو من قبل:

﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ٦٣ - ٦٤].

وهذا الحال الإنساني حال الضراعة واللجوء إلى الله تعالى سراً وعلانية في الأزمات فرديتها وجماعيتها، حين يكون الإنسان بعيداً عن مركز قوته ومأواه، ينقلب غفلة وشروداً وإعراضاً حين يصل الإنسان إلى ما يظنه مأمناً يحميه من الأذى، ولذلك جاء التعقيب على الآيتين بهذه الآية التي افتتحنا بها المقال، وهي آية تثير الرعب في القلوب الواعية، وتكشف عنها وهم الأمان الذي تظن أنها فيه، ذلك أن الإنسان إذا كان في طائرة أو سفينة وتعرض

لمخاطر فيهما من خلل أو مطب هوائي أو موجة عالية أو أي طارئ، في هذه الأحوال يستشعر الإنسان ضعفه، فهو معلق بين السماء والأرض وهو في مكان محدود المساحة ولا يملك فيه حولاً ولا طولاً، أو هو في البحر يخشى الغرق، وقل مثل ذلك حين يصيبه المرض، أو حين يفاجأ بعدو يعجز عن دفعه بقوته، في هذه الأحوال أو أشباهها يستشعر الإنسان الضعف، ويتذكر القوي القادر، فيلجأ إلى الله بالدعاء، ويقوم بمراجعة سريعة لمسار حياته، ويقدم مع الدعاء وعدا بالاستقامة، هذا الوعد يتراجع ويصبح ذكرى بل يمسح من الذاكرة حين يأمن الإنسان أو تزول الحالة الطارئة التي مر بها.

وتأتي الآية لتكشف للناس صوراً من العذاب الرباني الذي حل من قبل ويحل فيما نرى وهو سنة دائمة تتجلى حين يظهر الفساد في الأرض، وينتشر الفسق، وهي صور ذات تجليات:

أولها: العذاب من فوق، **وثانيتها:** العذاب من تحت الأرجل، **وثالثتها:** انقسام الناس في المجتمع إلى شيع متقاتلة.

وانظر إن شئت في الكوارث الطبيعية التي تحل هنا وهناك في أنحاء الأرض من أعاصير مدمرة، أو فيضانات كاسحة، أو زلازل وخسف يمسح عن وجه الأرض قرى ومدناً، وأعد قراءة قوله تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ﴾ بل قد يجتمع العذاب الفوقي والتحتي بالزلازل والأعاصير والفيضانات وقد يكون أحدهما. وفي حادث «تسونامي» الذي شهدناه شاهد، وفي الزلازل التي تضرب هنا وهناك شاهد،

وفي الأعاصير التي تضرب الساحل الأميركي شواهد.

والصورة الثالثة من العذاب تتجلى في «الحروب الأهلية» بين مكونات المجتمع الواحد، فترى أبناء الوطن والجيران يفقدون توازنهم ويقطعون ما بينهم من الصلات والروابط ويشهرون السلاح في وجوه بعضهم، وتمضي سنوات على ذلك تسيل فيها الدماء إلى أن يعود العقل إلى نصابه، ويسعى الخيرون إلى إصلاح ما فسد، لكن بعد أن ذاق الناس البأساء بأيدي بعضهم.

في هذه الآية قانون رباني يتجلى كل يوم في أنحاء الأرض، وكثير من الناس في غفلة معرضون وفي سكرة يعمهون!

وما أنتم بمعجزين

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾ [العنكبوت: ٢٢].

حين ننظر في إنتاج فكري أو أدبي لشخص ما فإننا نستطيع أن نستكشف فيه صورة قدرته العقلية، كما نستطلع من خلاله المستوى الثقافي له ولما شاع في بيئته وعصره. ذلك أن الإنسان ابن بيئته، قد يسبقها حيناً من الدهر لكنه لا يستطيع أن يتخلص من آثارها.

ومن دلائل إعجاز القرآن الكريم أنه كتاب لا يمثل عصراً ولا بيئة ولا عقلية بشر. بل هو كتاب الله الذي أنزله وفيه من الأدلة البينة على أنه كتاب العصور منذ تنزل إلى أن تقوم الساعة، ذلك أنك من خلاله تطل على آفاق ليست في قدرة البشر على التعبير عنها تعبيراً يقينياً مبنياً على نظرية أو فرضية أو احتمال. وقف إن شئت على الآيات التي حدثتنا عن خلق الكون ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

هذا كلام لا يقوله بشر لأن البشر سيقول كلاماً يدل على احتمال أو إمكان، لكن الذي خلق يخبر بما كان. وقف على الآيات الدالة على خلق الإنسان وما كان من شأنه في الملأ الأعلى في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ

ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

وامض مع القرآن وهو يحدد الغاية من خلق الكائنات المكلفة ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] ثم امض معه وهو يحدثك عن تاريخ الرسالة والرسل وأحوال الأقوام مع رسلهم، ثم في حديثه عن عوالم الوجود المختلفة: عالم النبات وما فيه، وعالم الحيوان وأحواله، وعالم الشهادة وآياته، وعالم الغيب وخفاياه، وما سيكون من أحوال الكون حين تقوم الساعة، واطلع على ما فيه من أخبار الجنة وأخبار النار، ذلك كله لا يمكن أن يكون إلا تنزيلاً من حكيم حميد.

وفي الآية التي بدأت بها المقال وجه من وجوه الإعجاز القرآني الدالة على ربانية القرآن، وهي آية أتذكرها وأتلوها كلما ركبت الطائرة، وأجدني أقول: حين أنزل هذا القرآن لم يكن أحد من البشر قد صعد إلى السماء، في طائرة ولا في أي وسيلة من وسائل الطيران، فكيف جاء قول القرآن الكريم ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ﴾؟! أليس في هذه الآية أخبار بأن البشر سيطيرون في السماء، بل سيقيم بعضهم في السماء ولو إلى حين كما نرى في الطيران وفي المحطات الفضائية وفي المستعمرات الفضائية التي يخططون لها، الآية تقول للناس: أنتم تحت القدرة الإلهية سواء كنتم في الأرض أو في السماء.

هل وصلت الرسالة التي قرأتها في هذه الآية؟

وكم في آيات القرآن من رسائل تبحث عن المتدبرين.

سيروا في الأرض

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: ١٩ - ٢٠]

شأن المكذبين لرسول الله شأن عجيب وأمر الكافرين بالله أمر غريب، ذلك أن كل ما حول الإنسان يدعوه إلى الإيمان بالله والتصديق برسله، لكن تاريخ البشر مع الرسل تاريخ تكذيب، وماذا كان الرسل يطلبون من أقوامهم؟ وماذا أرادوه لهم؟ طلبوا منهم توحيد الله والإيمان به، ودعوهم إلى سعادة الدنيا والآخرة، أفيستحق من فعل ذلك التكذيب والقتل؟ ﴿وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [العنكبوت: ١٨] وبعد ذلك جاءت الآية التي افتتح بها المقال. وفي التعبير ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ تعجب ولوم، ودعوة إلى رؤية ما غفل عنه الغافلون، ولذلك تلته الدعوة ﴿فَانْظُرُوا﴾.

وفي الآية دعوة صريحة للبشر للنظر العملي في نشأة الحياة على الأرض. وهي دعوة تحتاج إلى عقول واعية، وإلى تسجيل دقيق لمظاهر الحياة وظواهرها، وأنواع المخلوقات حيوانها ونباتها، دقيقها وعظيمها، وما تاريخ العلم عبر العصور إلا استجابة مباشرة أو غير مباشرة لهذه الدعوة، وتعجب ممن يضع يده على قلبه خوفاً على الإيمان من العلم، وهو خوف يدل على جهل لا على علم ولا على إيمان. لأن الله تعالى الذي أنزل القرآن وعلم نبيه ما لم يكن

يعلم هو خالق الكون فهل من خوف على التنزيل الذي فيه الآيات القرآنية من كشف الآيات المبثوثة في الكون وما فيه؟ لا ثم لا، بل العلم طريق إلى الإيمان، ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فُصِّلَت: ٥٣] بل ما لنا نبعد في القول وها هو ربنا سبحانه يدعو الناس مؤمنهم وكافرهم إلى السير في الأرض للنظر في البيئات المختلفة والتأمل في أحوال المخلوقات والسعي إلى اكتشاف كيفية بدء الخلق. وهذا الأمر المطلوب ممكن التحقق، ولذلك طلبه الله تعالى من الناس، ولو كان أمراً غير ممكن لما طلبه، والغاية من هذا الطلب الوقوف على دورة الحياة بدءاً وإعادة وهي دورة تتجدد في المخلوقات على تفاوت بينها في المدة والكيفية، وفي الوقوف على الخلق بدءاً وإعادة اكتشاف لجانب من جوانب القدرة الإلهية التي تتجلى في الدنيا والتي تشير إلى النشأة الآخرة حين تقوم الساعة، وتبدل الأرض غير الأرض والسماوات.

والأمر الذي يبدو في عقول الناس معقداً هو عند الله يسير، والذي يشكل على الناس أمره يحل إشكاله وصولهم إلى حقيقة يقينية مفادها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

هاتان الآيتان قرأهما المسلمون منذ تنزل القرآن وفيهما دعوة صريحة إلى البحث والتنقيب واستكشاف قوانين الخلق فلماذا قصرنا في السير في الطريق إلى منتهاه، سرنا فيه مدة من الزمن ثم تركناه لغيرنا وغفلنا عن آيات الكون وشغل علماؤنا بجانب دون جانب بل بجانب على حساب جوانب؟!

لا يهدي كيد الخائنين

.. ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٢]..

جاءت هذه الآية أو بعض الآية في سياق اعتراف امرأة العزيز بعد أن انكشفت اللعبة، وظهرت براءة يوسف على الملأ باعترافها أنه كان طاهراً نقياً وأنها هي التي راودته عن نفسه فاستعصم.

في هذا السياق يأتي قانون لا يخص الموقف الذي قيل فيه بل يشمل هذا الفعل الشنيع المستنكر من كل ذي فطرة سليمة: الخيانة.

والخيانة تسلل إلى أمر ليس لك بطريقة غير مشروعة، تسلل بالعين أو اليد أو كل وسيلة متاحة، ويشمل العرض والمال وكل ما يتوصل إليه أو يطمع فيه.

والخيانة أمر لا يحبه الله، وتكون عاقبته الخسران.

..﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨] ..

..﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٣٨] ..

..﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء: ١٠٧]..

وإذا كانت الخيانة أمراً لا يحبه الله، فكل من تعرض لخيانة من نوع ما لا يحب الخيانة ولا من خانه. وكثيراً ما يقف الإنسان وقفة أسى أو عتاب أو تعنيف ويسأل من خانه: لم فعلت هذا؟ ألم أؤمنك؟ ولو سألتني بعض ما خنتني

فيه لأعطيتك إياه دون لجوء إلى الخيانة. هذا إن كان مما يمكن إعطاؤه من مال مثلاً، وفي اكتشاف الخيانة حسرة في النفس لا تقدر، وبخاصة إن كانت الخيانة مؤامرة من طرفين كنت تظن الأمان منهما.

والذي تشير إليه الآية أو بعض الآية أمر عجيب ترى مصداقه في حوادث التاريخ، وفي سير كثير من الخائنين على اختلاف رتبهم ومواقعهم. وتعجب كيف تنكشف مؤامراتهم وهم من هم في المنزلة والسطوة، وتعجب كيف لم يصلوا إلى ما خططوا له، أو كيف انكشف ما وصلوا إليه وظنوا أنهم في مأمن من أن يعلم الناس خيانتهم، وتمضي الأيام ويكون في بناء المؤامرة نقطة ضعف تتسلل منها المعلومات، وتنكشف الخيانة ولو بعد حين، ليرى الناس الوجه الآخر للخائنين.

..﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾..

والكيد تدبير خفي يظن من يفعله أنه في مأمن، وأن أحداً لن يطلع عليه، واسترجع نموذجاً لذلك ما كان من امرأة العزيز أول الأمر قبل أن ينكشف حالها لنسوة المدينة ثم يدخلن معها في الكيد، ولئن قال العزيز لزوجه ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨] فإن هذا الانكشاف لم يجعل شهوتها تهدأ، ولم يبرد رغبتها في الحرام وقابلت مكر نسوة المدينة بكيد لهن أوقعهن فيما وقعت فيه حتى صاح يوسف في دعوة حارة إلى ربه..﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ [يوسف: ٣٣].. ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ [يوسف: ٣٤]

.. وذهب يوسف ضحية الكيد، دخل البريء السجن، وبقيت الكائدة صاحبة الجريمة طليقة حرة، ربما كانت تتقلب في نارة الحسرة وتأنيب الضمير، لكن ذلك لا يغير من الأمر شيئاً، فيوسف في السجن. فهل يهدي الله كيد الخائنين، ويظل البريء متهماً والمجرم بريئاً شريفاً؟ وكانت براءة يوسف في ذلك المشهد الحاشد على ملأ من الناس، لينجلي هذا القانون الرباني.. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾..

وكم هو ممتع شاف للنفس أن تؤلف «موسوعة الخيانة» نستكشف من خلالها عبر العصور، ولدى الأمم المختلفة، وفي مختلف بقاع الأرض ألوان الخيانة وكيف نقض بناء مؤامراتها، ولم يهد الله كيد الخائنين، ذلك ليزداد الشريف استمساكاً بشرفه، ولعل ذلك يكون سبباً في ارتداع النفوس عن الخيانة.

الفهرس

ذلك الكتاب ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾

دعوات للسير في الأرض

ألم تر وأخواتها

الأزمات والرحمات في سورة الكهف

تدبر في القرآن

نظرات في آيات